www.kotobarabia.com

رواية

بخور الذهب

www.kotobarabia.com

السعيد أحمد نجم

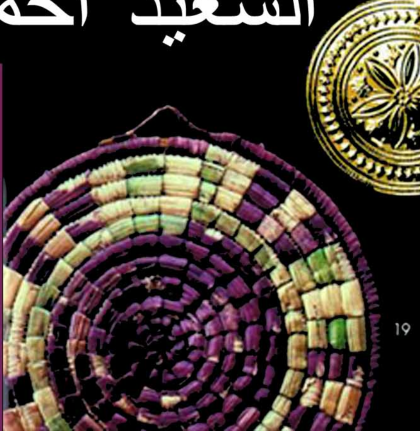

بخور الذهب

رواية

السعيد أحمد نجم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

إهداء

إلى..

الكاتب المسرحي.. محمد سعيد..

الذي أضاء على طريق إبداعي شمعة

السعيد أحمد نجم

فهرس

إهداء ٣

فهرس.. ٤

حلم لا يحقق الذات : بقلم / عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل ٥

(١) ٧

(٢) ٢٢

(٣) ٤٠

(٤) ٤٨

(٥) ٥٦

(٦) ٦٧

(٧) ٧٥

(٨) ٨٤

(٩) ٩٣

(١٠).. ٩٩

حلم لا يحقق الذات

بقلم

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

بداية.. يهمنا أن نطمئن جميع المهتمين بإصدارات (إبداع الحرية) إلى أن ما يصلنا من كتاباتهم هو قيد القراءة، ويلقى منا كل احتفاء وتقدير.

واليوم، نقدم إلى الساحة الأدبية كاتبا من ريف الدقهليـة، يعيش مغتربا في ألمانيا منذ أكثر من عشر سنوات، وهـو لا يزال يحمل مشاكل أهل قريته على ظهره.

في أولى روايته (بخور الذهب)، يرسم السعيد نجم بتلقائية تقترب من المباشرة، واقع أسرة تعيش تحت درجة الصـفر، وكيف أحالها الفقر إلى كائن لا بشرية فيه ولا إنسانية؟

ثم كيف اتسمت أعمال ذلك الواقع برغبات شيطانية؟.. لقد انتزعت - بسهولة - من قلب الأم أمومتها، ومن عقل الأب

حدبه واحتضانه لأولاده، إلى درجة أنهما باعا ابنتيهما لكهلين تحت ما يسمى بالزواج.

إن هدف تحقيق الثراء والحصول على الذهب، وجدا فيـه البديل الأسمى، لواقع شرير، ربما يحقق نوعا مـن أمـاني الذات وأحلامها، ولكنه - في النهاية - لا يحقق الذات، وإنما يدفعهما إلى انعزالية، تنأى بهما بعيدا عن الإنسانية.

(١)

اهتم عم عباس بتربية شاربه أكثر من أي شيء آخر في حياته، حتى أصبحت شهرته (عباس شنبو)، ورغم أنه فقير لا يملك شيئًا ولا عمل له، إلا أن الفقر لم يستطيع أن ينال من طوله وعرضه أو يهن عزيمته، بل كان يبدو ممتلئًا عريض القفا، مرتفع الصدر، ضخم الشفتين.

وحيث إنه كان في معظم أوقات حياته بلا عمل، فلم يكن هناك شيء يملأ عليه ساعات الفراغ، سوى الوقوف في شرفة منزله، يهتم ببرم شاربه ورفع طرفيه بعناية، لدرجة أنه ظل يعتقد بأن وقوفه هناك يوحي للمارة بأنه أسد يحمي عرينه، في جلباب واسع الأكمام، ينحسر تماما عن القفا العريض، فيبدو مستديرا هائلاً.

يتكون عرينه من أربع حجرات مبنية بالطوب اللبن، الحجرتان الأماميتان وهما اللتين تشرفان على الشارع، تتوسطهما الشرفة، أما الحجرتان الخلفيتان، فتعيدان لمن

ينظر إليهما إلى حياة الكهوف، مظلمتان تماما، فما أطلت عليهما شمس ولو على سبيل الفضول.

وإذا كان الفقر لم يستطع أن ينال من (عباس شنبو) إلا أن بصمته كانت واضحة على جزء من أجزاء عرين الأسد، أثاث البيت كان عبارة عن سرير لا تعرف إلى أي عصر ينتمي، لكنه لا يزال يقف على أرجله الأربعة، سوء الحال واضح تماما على فرش السرير والأغطية، بما يؤكد لمن يرى عن سوء الحال، خاصة إذا عرفنا لعباس شنبو ثلاث بنات وولدين يعملون كلهم أجراء في حقول القرية، وكل من يبذله من عمل القيام بدور الوسيط بين أصحاب الأراضي وأفراد أسرته.

لذلك، لبث يعتقد بأنه يقوم بعمل لا يستهان به حين يجري الحوار مع من يحتاج لإجراء، وهو منتصب القامة طوال اليوم في الشرفة.

من لا يعرفون أهمية وقوفه هناك، يحتارون، كيف يقضي الرجل كل هذا الوقت بلا مال؟، وكيف يستمرئ الحياة بهذه الصورة؟ يضاف إلى ذلك، أنه كان فظًا في معاملة بناته، وكان أكثر من قاس مع ولديه.

وليس بمستغرب، أنه حين أُتيحت الفرصة لهروب ولديـه من فظاظته وقسوته، لم يفرطا فيها، وقد تزوج كلاهما فـي ظروف عجيبة، أشبه ما تكون بزواج قطط الشوارع!

في حجرة بلا دورة مياه، وبشكل من الأشكال ما يمكن أن يسمى سريرا، صباحا. يخرج كل ولد وزوجته إلى الحقـول كأجيرين، وليكن في الغد ما يكون، فليس هناك أسوأ من هذه الحياة.

ومضت الأيام وعباس شنبو يعيش مـع نفيسـة الزوجـة السمجة مثل الذباب، لا يثنيها خجل ولا حيـاء مـن سـؤال الجيران عما تحتاجه، شاي، سكر، ملح، دقيـق تسـأل، ثـم تسأل، كان وجهها خلق من نحاس، وليس من دم ولحم.

تنتهز مناسبات الأفراح والأتراح لتحصل على حاجاتهـا، من الجيران، وممن يمكن أن يجود بشيء، أو يقسرهم الحياء والخجل على العطاء.. كانت مثل ذبابة سـمجة، لا تـدفعها هشة من يد ولا إعراض عنها.

لقد صممت على الانتصار على ظروف حياتها القاسـية، كانت تتناول وزوجها أكبر كمية من الأطعمة التي تحصـل عليها، وهي تقول:

لازم نبر نفسنا علشان نقدر
نقف على رجلينـا ونربـي
العيال، وياما العيال بكـره
يشـــــــــــــــــوفوا!

دائما تلوك بالأسنان وتطحـن بالضـروس، حتـى ازداد جسدها شحما وترهلاً، عكس البنات اللاتـي ارتسـم علـى وجوههن شبح العوز والجوع الذي هـرب منـه الابنـان، وكأنهما هربا من الجحيم إلى الجحيم مـن شـظف العـيش، ولكنهما أصبحا يتمتعان بقدر من الحرية، يكفيهما أنها تخلصا من سلاطة لسان الأم والأب.

على حين كانت تقترب الابنة الكبرى من سـن الـزواج، وباتت تحلم، كل يوم تحلم، مجرد حلم واحد تراه بعيد المنال، وكلما رأت عرسا، رأت نفسها تتيه وتطير في ثوب الزفاف، وهي محاطة بالبنات وسيدات القرية، يغنين لها أغان كثيـرا ما رددتها في أفراحهن، وكأنهن يعدن إليها الجميل.

فلكم غنت وأحيانًا ترقص على استحياء، وعندما تفيق من تخيلاتها، ترى نفسها في ملابس رثة، وتقر بـأن أحلامهـا مستحيلة، وإن لم تفقد الأمل كاملاً.

وعرفت مجموعة من الفتيات ممن كانت لهـن ظروفًـا صعبة، الطريق إلى أضرحة الأولياء، تعلقن بالأستار، نذرن النذور، مبتهلات، ضاحكات أحيانًا وهن يقلن:

جوزنا يا شـيخ ظهيـر..

جوزنـــــــــــــــا

يا شيخ ظهير.

صدقن أن له القدرة على الإيجاب، فلكـم سـمعن عـن كراماته، فلماذا لا تتجلى قدراته، ويظهر لكـل فتـاة فتـى يخطفها من واقعها ويقذف بها إلى عالم النساء؟.

ثم تتذكر أمها، تتضاعف مرارتها، تعلم كم يستثقلها الناس ويهربون منها جريا لو استطاعوا.. يقولون: "البنـت تطلـع لأمها" فهل هي بالفعل ثقيلة الظل، سمجة، لا تحتمل كـذباب الشتاء؟، قد يكون للناس الحق في هذا، بدليل أن أحدا لم يتقدم إليها حتى الآن من الشباب، هي إذن كمـا يظنـون طالعـة لأمها!.

غير أنه لا يزال يراودها الأمل، يتراءى لها حلمها، قويـا ناصعا.. لا تدري، خاصة وأن كثيرات أقل منهـا تـزوجن وأنجبن!

ألقت ببصرها إلى الخارج، الحارة تبدو هادئة، لا تغير في شكلها يذكر، لا تعرف إلى أي مدى ستظل تحتفظ بصورتها القديمة.. ليس في ذاكرتها سوى طنين الذباب ورائحة الطين التي تدعك بها واجهات البيوت من الخارج، كل ما كان فـي داخل بيوتها، يجتمع على صور ألفتها النفوس، التوحد فـي نوعية العمل و في نمط الاستهلاك، في أحجام الدخول، فـي غياب الطموح، مع قبول الحياة على مـا هـي عليـه، دون الجهر بأي شكوى.

حارة.. الكل فيها سواء، فعلام الحقد.. علام الحسـد؟! إذ ليس هناك ما يحسد عليه، حتى الضحكة التي كان يتقاسـمها الناس.. بلا تنافس.. بلا توتر.. بلا قلق.. تراهم يحمدون الله في كل لحظة، كأنهم أوتوا مفاتيح كل شيء.

أبوها عباس المشهور بشنبو مغرم دائما بـالوقوف فـي شرفته مبتسما، يهيأ لكل من يدبون بالأقدام تحت ناظريه، أنه يقفز فرحا، يقبل يده وجها وظهرا حامدا ربه شاكرا، يتبـادل الحديث والقفشات مع الأسطى حسبو فـي دكانـه المواجـه للشرفة.

حسبو الحلاق لا يغادر دكانه طالما كانت بين يديه رأس أو بين كفيه ذقن، يثرثر ويده تجري بالموسى على وجه الزبون، يثرثر ويده تجري بالمقص على الشعر.

لا يعرف من حتى الآن أطلق على دكان الحلاق وكالة أنباء القرية، كأنه وهو يحلق الشعر، كان يحلق معه ما في جعبة زبائنه من أخبار، وبالتالي أصبح كل من يريد أن يعرف آخر الأخبار، عليه بالمرور على دكان حسبو الحلاق، ولا يزال دائما هناك عباس شنبو يتحرك ببطء في شرفته، وهو لا يمل أبدا من الاستماع، فما عنده شاغل آخر يشغل الوقت المديد الممتد بمساحة حياته كلها.

واتسعت عيون الجميع لا على خبر طازج من أخبار حسبو، وإنما انصبت النظرات على زاحف جيد، يدب بأقدامه دبيب الجيوش العتيدة التي لا تمنعها مقاومة أيا كانت من الاجتياح.

تحركت أمواج القرية الأسنة، عرف - ولأول مرة - سطحها الموجات، مياه تتدفق برائحة جديدة منعشة، تبعث على الحركة والنشاط، وتفتح أبوابا صدأت مغاليقها، حتى ليظن أنه لا سبيل لفتحها.

رائحة الدولارات القادمة من بلاد النفط، تغزو القرية على حين غرة، بظهور الدولارات فكر الكثيرون فيما يمكن أن يعود على ملامح القرية من التغيير.

قليل من أبناء القرية سافروا إلى الصحراء العربية ليعملوا هناك رغما عنهم، فقد كان ارتباطهم بالقرية لا يزال قويا، هناك جرت في أيديهم الدولارات، فتحت أمامهم أبوابا تختلف أشكالها وسلوكياتها بدرجة لم تخطر لهم من قبل على بال، كادت تذهب بألبابهم، وحين عادوا بوجوه تختلف ملامحها، تطايرت أخبارهم وكانت وكالة حسبو الحلاق أول من أذاع خبر وصولهم.

تلقى عباس شنبو الخبر وهو صامت، لا يكاد يعرف وجها من وجوه المتغيرات الطارئة على من عادوا، ولكنه يستطيع أن يلمس بعينيه أشكال العائدين، معظمهم يرتدون الملابس الخليجية الناصعة البياض، يحكمون بإعجاب الأزرار إلى آخر زرار، الزرار الأخير كاد أن يخنق الرقبة.

تنتشر رائحة كل عائد بجلباب أبيض يفوح منها رائحة العطور وهم يمشون في دروب القرية التي ما ألفت غير الطين والروث، ثم ظهرت أحجام وأشكال مختلفة من أجهزة

التليفزيون والكاسيت، وألوان وأشكال من أقمشـة وملابـس يسيل لها اللعاب وتلعب بعقول وأخيلة المشاهدين.

ما فتئت الأحاديث تدور حول كل عائد، ويختلـق بعـض الناس القصص بعضهم يذكر الأرقام المالية جزافًا بلا تقدير، والبعض الآخر يعتدل في التقدير، ربما لأن الحديث بالأرقام لم تكن القرية تعرفه قبل ذلك.

وبدأت الهموم والأماني تتحرك في الصدور، لأول مـرة تداعبهم الأحلام وترعشهم الطموحـات، وتحرضـهم علـى التمرد والسخط على الفقر، وبدأت موجات الأمل في قـذف موجات جديدة تجري في شريانهم، وهـم ينظـرون، فـإذا بأيديهم لا تزال خشنة معروفة، وعيون لا تـزال نظراتهـا زائغة، كأنها كانت تحتمي من الفقر بزيغها وعم استقرارها.

اتخذت رغبة الرحيل إلى عالم البترول أشـكالاً عديـدة، الأمل في الحصول على كاسيت عالي الصوت، مثـل ذلـك الذي يحمله أحدهم على صدره ويمشي بـه متبختـرا فـي الشوارع.

لا شك أن تلك الروائح النفاذة وصلت إلى عبـاس شـنبو وهو يتحرك في الشرفة، وبدأت نوبات تقبيلـه ليـده وجهـا

وظهرا، حمدا وشكرا، تقل رويدا. رويدا، حتى اختفت تماما في حياته على ارتفاع أصوات الأخبار الصاعدة من دكـان الحلاق، لحظة، بلحظة عن كل عائد جديد، فلا يزيده ذلك إلا سخطًا على حياته.

آخر الأنباء التي استمع إليها، تركزت حول وصول شغالة من بنات قريتهم، كان اصطحبها أحد مدرسي القرية معه إلى دول النفط، وعادت مثل سيدات المدينة، مرفوعة الرأس، بعد أن قهرت فقرها وانتصرت عليه.

وتدور الدنيا برأس عباس ولا تتوقف، لا يجد من ينقلهـا إليه في محاولة للتخفف من أعبائها، سوى زوجتـه، وتشـتم بأنفها أوانًا من الأخبار، لتعرف حجم العائد ومدى ثقله، ثـم تختفي لتظفر بأي شيء، وبأي شكل، وتعود لتلهـب خيـال زوجها بما رأت، وبما أضاف خيالها!

يعود عباس إلى مكانه من الشرفة، لا يعلم في ذلك اليـوم من الذي أوعز إليه أنه يعيش في سجن اختياري..؟.. سـمع نفسه تقول وتزيد وتفيض.. حقًا. هل يمكنه السـفر؟.. لقـد تقدمت به السن، ثم أنه كان استمرأ الراحة وفقد الرغبة منـذ سنوات في العمل، وتناسى أن له ولدان هربا من حياته إلـى

الأبد.. من الذي يسافر الآن؟.. زوجته.. لا. لا يمكن. يكفي أنها ترجع إليه من بيوت الذين عادوا محملة بما استخلصـته منهم بطريقتها اللازجة ومد يدها دائما بالسؤال.

وأثناء تناولهما الطعام، كانت تصب في أذنيه مـا أفقـده تماسكه الظاهري.. رائحة الدولارات يا عباس قلبـت كيـان العائدين وفتحت أمامهم أبواب الشهية وحب تنـاول أشـهى الأطعمة، ثم تصلبت عيناها على وجهه وهي تقول:

شوف الواد منصـور الـواطي
.. قـال جـاب معـاه راجـل
سعودي عايز يتجـوز، يقـوم
ياخده على بيت مروان عشـان
يجوزها البنت المقشـفة اللـي
اسمها ست الـدار، هـو ابـن
العمشة ده ما شافش بناتنا اللي
زي القمـ ـ ـ ـرات دول.. الله
لا يكسبه.

انهمك عباس في برم شاربه وهو يقول:

بتقولي إيه يا ولية؟.. مروان

هيجوز بنته للسـعودي ده؟
يمكـ ـ ـن مـ ـ ـايوافقش.

علقت على كلام زوجها باستخفاف:

ما يوافقش! أنت باين علانياتك،
مـ ـا يـ ـوافقش ليـ ـه؟..دا
الغراب ما يرضـاش يتجـوز
بنته الزرقـة دي.. والفلـوس
بتعمي النظر.. بـس الراجـل
السعودي يشخشخ له بقرشـين
يديها له على طول حتى ولـو
كانت أحلى من كدا ألف مـرة

تمتم وهو لا يزال يسوي شاربه:

كدا يا منصور يـا ابـن..
العمى جـه للـي خلفـوك!

وفكرت المرأة طويلاً قبل أن تقول:

الراجل دالوقت فـي بيـت
مروان، أكيد هيغدوه عندهم
النهار دا، همـه هيصـدقوا

سيهرب مروان من سجن الفقر، سيمتلئ بيته بـالأجهزة الكهربائية، وتضاء جوانبه.. ستذهب صورة قبحه.. وأنا!!!

يتفق عباس معها في المشاعر، لكنه لم يحتمـل الخبـر، ابتعد عن خطواته القلقة في شرفته التي أصبح وهو يتحـرك فيها كأنه يدور في زنزانة مغلقة، لم تسعفه خطواته القلقـة، بدأ مشيه في ركض ثم أخذ يوسع من خطواته ويعدو، تجاوز عرض الشارع إلى دكان الحلاق، الزبائن يجلسون، يقولـون ويسمعون وقد لا يحلقون، تأتي الحلاقة في المرتبة الثانيـة، يرددون بعض الأخبار حول حياة العائدين الجديدة، لا يجـد فيها حسبو ما يفتح الشهية، يعلق بفتور قديمة.

يجلس عباس شنبو قلقًا، ينظر إليه الحلاق نظرة خبيـر، يعرف أنه يريد أن يبيض كلاما لا يحتمل الأوجاع التي تنقر صدره، شجعه على الكلام بقوله:

مالك يا عم عباس.. شايفك

عايز تقـول حاجـة كـدا.

انفجر صوته قائلاً:

سمعت الخبر دا يا أسطى حسـبو.
مش تقـول خبـر إيـه؟.. بـس
قول، قول ولا يهمكـش حاجـة.
فيه راجل سـعودي مـع الـواد
منصـور عـايز يتجـوز بنـت
مروان، يعنـي الـواد منصـور
عايز يجوزه البنت سـت الـدار
قديمة، بالأمارة هـو فـي البيـت
دي الوقـت، علـي النعمـة أنـا
أقدر أقولك هـم بيقولـوا إيـه؟،
كمان أقدر أقولـك هـم هيقولـوا
إيه بعد نص ساعة، جـرى إيـه
يا عم عباس، هو أحنـا شـوية!

لأول مرة يرفع عباس شنبو صوته:

شـــوف الراجـــل النـــاقص عـــايز
يبيـــع بنتـــه للراجـــل العجـــوز
المهكع ده، حد يبيع لحمـه يـا عـالم،
ده كلام، إيه خلاص، الفلـوس جننـت
العالم، مـا كنـا حلـوين وراضـيين
وحامدين ربنا، إيه اللـي جـرى فـي
الدنيا؟
يا عم عبـاس حـد عـارف مـروان
هـــا يوافـــق والا لا، ولـــو وافـــق
عنده ألف حـق، بنتـه مـا تسـاويش
تعريفة في سـوق النسـوان، شـايفها
مطلوبة هنا قـوي والعرسـان واقفـين
قدامها بالطابور؟، يـا عـم.. المركـب
اللي تودي.

علق عباس بهدف معرفة ما يمكن أن يسفر عنه كلامه:

يعني إيه ما تسـاويش.. الضـنا
غالي، حد يرمي ضناه، لحمـه!!

(٢)

في تلك اللحظة، كانت نفيسة زوجة عباس شنبو تحوم حول بيت مروان، تتلصص، تتشمم الروائح بأنفها، تحفز أذنيها لتعرف ما يدور خلف الجدران، تتمنى من كل قلبها أن لا يصلوا إلى اتفاق.

وطال الوقت بمنصور ورفيقه داخل بيت مروان، خواطر كثيرة سريعة تروح وتجيء في رأس نفيسة.. لابد أنهم يتفقون على التفاصيل الصغيرة الآن.. أكيد أن عيون كل أفراد أسرة مروان تلمع بالسعادة وتنضح بالأمل.. الآن يتضاحكون.. أكيد أن الفقر هرب بأسماله من بيتهم ليغادره إلى غير رجعة.

ومع ذلك لا يزال الأمل يراودها من بعيد، فيخطر ببالها أن غيابهم هذا ربما كان لنقط خلاف يدورون حولها ويعيدون ويزيدون.. تمنت من كل قلبها ألا يوافق مروان.

هناك، على مصطبة قريبة جلست وعيناهـا لا تفارقـان باب مروان، اصطادت إحدى النسـاء، أجلسـتها بجانبهـا، اختلقت كلاما تشغلها به، كان لسانها يدور في حلقها بالكلام، لكن عقلها وعينيها كان في واد آخر.

أخيرا خرج منصور ومعه الرجل السـعودي، حاولـت نفيسة مطالعة ما في عيونهما، لعلها تجد ضالتها المنشـودة، لمست ما يطمئن قلبها إلى حد ما، ولكن ذلك وحده لا يكفي، فأرهفت السمع، تسرب إلى أذنيها ما يؤكد عدم موافقة مروان على الزيجة.

رقص قلبها فرحا، أقسمت بينها وبين نفسها إلا يفلت هذا العجوز المتصابي من بين يديها، لابد أن يكون من نصـيب إحدى بناتها.. لن تكون نفيسة إذا لم يتحقق لها ذلك.

تقدمت إلى الرجلين بجرأة لا تصدر إلا من مثيلاتهـا.. سلمت على منصور.. قبلت وجنتيه.. قالت:

كدا يا منصور أوام نسيتنا يا ولـه..
دا أنا اللي مربياك.. أنـا رضـعتك
أكثر من أمك، ما تجيش يا وله تسلم
علي وعلى عمك عبـاس.. لأ. لأ..

عليك حق كبير قوي.

ثم استدارت إلى الرجل الذي ظهر عليه الإعياء، وعلـى وجهه ظهرت علامات خيبة الرجاء، فقد كان منصور أفهمه أن طلبه سيجاب، وها هي النتيجة، مروان رفض، وقد يعتذر الآخرون:

نورت بلدنا يا حاج، يا راجل يا نـواره،
دا أنت جاي من عند أبو إبراهيم اللهـم
صلي وسلم عليه، والله ما أنا سـيباكم،
لازم تشربوا الشاي عندنا، عشان بيتنـا
يستبارك، إيه هتكسفني يا حاج!

تسمرت أمام الرجلين، شنت عليهما إلحاح الذبابة السمج، عبثًا حاولا التخلص من محاولاتها المستميتة، لم يجدا بدا من إجابتها، ثم راحت تصب على العجوز المتصـابي ترحيبـا وثناء بعد أن عرفت اسمه وصارت تقول شرفت يـا حـاج صالح.. نورت يا حاج صالح، ولولا أنها تماسـكت لكانـت قبلته من وجنتيه وادعت أنها أرضعته هو الآخر أكثر ممـا رضع من قبيلته كلها!

بعينيها قالت لزوجها وهي تبتسم للحاج صالح: لقد أتيتك بالصيد السمين، ولن يفلت أبدا من قبضتي، ولو تعاونت كل فئران العالم على قضم حبال الشبكة التي سأدخله فيها.

انفرجت أسارير عباس شنبو، وانهال على صالح تقبيلاً، ولم يتوان عن تقبيل منصور، وبصـوت منفـوخ بالبهجـة والفرح، قال:

اتفضلوا.. يا مرحب.. يا ألـف أهـلا
وسهلاً.. دا إحنا زرنا النبي النهـار دا
.. والله لك وحشة يا واد يا منصـور..
أنت رجعت بالسلامة إمتى؟
من تلات أربع أيام يا حاج.
وحياة النبي محمد مـا عرفـت، ولـو
عرفت لكنت جيت لك فـي سـاعتها،
أنـت مـا تعـرفش معزتـك عنـدي
أد إيه.

ثم استدار إلى الحاج صالح وقال:

أهلاً وسهلاً، شرفت ونـورت..
يــا أهــلاً، يــا مرحــب.

واستمر يكيل كلمات الترحيب حتى قاطعه منصـور قائلاً:

الحاج صالح صاحب العمل، رجل كبـارة بصحيح، راجل يعـرف ربنـا ومقتـدر، ونعم الرجال.

سيماهم في وجوههم، بسم الله مـا شـاء الله، شرفت يـا حـاج صـالح وإنشـاء الله تكـ ـ ـون بلـ ـ ـدنا عجبتـ ـ ـك.

لم ينطق صالح سوى بكلمة الحمد لله، وكأنه أخـذ علـى غرة، وعلق حسبو الحلاق حين شاهد نفيسة تـدخل البيـت وضيفاها وبصوت عال يسمعه مختلف المارة ومـن كـانوا هناك من الزبائن:

مساء الفل يا حاج عباس!

رد عباس بضجر فقد كان يعرف ما يقصده حسبو بهـذه الطريقة:

مساء الخير يا أسطى حسبو، ما تعملـش

حســابي فـــي الحلاقـــة النهـــار دا.

يخفض حسبو من صوته بحيث لا يسمعه سوى المزبائن:

حلاقة إيه ابن.. هـو كـان هيحلـق،
شوفوا الراجل يا خويا من خمس دقايق
كان عندي هنا وبيشتم جدود اللي خلفوا
مروان، وبيقول عليه راجل واطي عايز
يبيع لحمه، لكنه ما صدق إن مـروان
رفض العريس، وراحت مراته لهفـاه
عشان تجوزه واحدة من بناتها.

يضيف أحد الزبائن:

هو وقع في إيد نفيسة. قول فيه عليـه
العوض.. دي زي الكماشة يـا عـم..
هي تجوز بنتها يعني هي تجوز بنتها..
هو الدخل عند نفيسة زي الخروج!

ويقول آخر:

أيوه.. دي بلوى مسيحة، الراجل دا حظـه
أسود، وقعته سودة، إن شـاء الله هنسـمع

خبره قريب، الولية دي مصيبة.

ويوضح زبون كان حسبو أغرق ذقنه برغاوي الصابون:

هو جوزها اللي سهل يعني!

أنت بتغرك المظاهر، جوزها دا قنطـرة

بس، يعنـي نـور الله فـي برسـيمه،

الولية هي كل حاجة، تقـول لـه قـوم

يقوم، أقعد يقعد، اعجن عجين الفلاحـة

يعجن.. نفيسة وبس، وتلاقيها هي اللـي

حطاه منظر، يعني معلقاه ُأدام البيت!

كل هذه الحوارات كان يدركها عباس شنبو، ويزعم أنهم يمكن أن يقولوا عليه أكثر من ذلك، ليس هذا مهما، إنما الذي يجب التركيز عليه أن يحرك دفة الحديث لصالحه.

سأل الحاج صالح:

تحب تشرب إيه يا حاج صالح..؟

معلش البيت مش أد المقام.. المهم

الأخلاق والسمعة الطيبة.

وبعد برهة سأله:

أعملك شوية شاي حلوين!!

أوما صالح برأسه موافقًا، وانطوى على نفسـه مفكـرا، بينما كان عباس يحاول معرفة ما بداخله.. ما الذي يفكر فيه الآن؟

كانت السنون فعلت في وجهه أعمالها، تجاعيد، خطـوط حفرتها حتى أصبح من الصعب معرفة ما يدور فوق جدران كهف بلا شموع.

هرب عباس شنبو من وجه الرجل بالصياح:

الشاي يا أهل البيت.

وهو أول من يعلم بأنه لا شاي هناك ولا سكر، وربمـا يكون الموقد هو الآخر غير صالح للعمل، أو يحتـاج إلـى الجاز، لكن ذلك لن يعجز زوجته، إنها تعرف كيف تتصرف، يمكنها بسهولة أن تسقط على أي بيت من بيـوت الجيـران، تستخلص من هناك حاجاتها، ولعل هذه تكـون آخـر مـرة تتصرف فيها كالذبابة، ولا يستبعد أن ينهال الخير على بيتها كغزير المطر، حينما تحكم القبضة حول رقبـة الكهـل ولا تدعه يفلت إلا وفي يده ابنتها الكبرى.

واعتبر عباس نفسه على عكس معظم رجـال القريـة، يحب البنات أكثر من الأولاد.. الحقيقة تؤكد ذلك، فلقد خرج

ولداه عن طوعه وإرادته، لا أحد منهما يعطيه مليما واحـدا، البنات يعملان وليس لهن مطالب، والآن سينساب الخير عـن طريقهن.. ألم يكن عنده الحق في وضع خطتـه والالتفـاف حول الحاج صالح؟.. لقد صدقت فراستك يا عبس!!

طارت نفيسة إلى الخارج، ثم أتت بما تريد، لم تكن بأقل رغبة من زوجها في إتمام الزيجة، بل أكثر رغبـة وأعظـم تلهفًا، فهي أدرى بصعوبة زواج البنات، أدرى بحالهن، بـل وتعاني أكثر من زوجها بسبب قسوة الظروف، فهي التي تمد اليد دائما بالسؤال وطلب الحاجة، ولذلك كانت أكثر منه فـي طلب العثور على المال، والشوق لملامسة أوراق البنكنـوت وتقبيلها، قبل أن تحتفظ بها في مكان تعجز الشـياطين عـن الوصول إليه.

وبسرعة فوق ما يتصوره عباس، أعدت ابنتها الشاي في وقت وجيز، وكانت الفتاة تفكر في ما يمكن أن تصنعه فـي حياتها ببركات الشيخ ظهير الذي دارت حوله مقامه عشرات المرات. ولم يخف عن منصور مدى الحيرة التـي تسـيطر على عباس شنبو، هو أيضا يريد أن يزوج صـالحا لتنتهـي مهمته ويفرغ لحياته، فبادره قائلاً:

إزاي أولادك وبناتك يا عـم عبـاس..
من زمان ما شفتش حد منهم.. زمـان
البنات كبـروا مـا شـاء الله وبقـوا
عرايس.. طبعا حلوين زيك يا حـاج!

هتف عباس في نفسه، فتح الله عليك يا منصور، أنقذتني، وأعطيتني الخيط، وأي خيط.. انتشلتني من حيرتي.. سلمت بصيرتك، وانفرجت أساريره، وارتسمت بسمة على وجهـه وقال:

كلهم بخير، ما هم أخواتك يا منصـور
مـا يتخيـروش عنـك، ولاد حـلال.
البنات أخبارهم إيه يا حاج.

وغمز لعباس بعينيه، غمزة فهـم مـن ورائهـا أن منصور يعرف البير وغطاه، وأنه ليس أمامه الوقـت للـف والدوران، ويحب الكلام في المفيد.

فهم عباس الرسالة، فقال مسرعا:

البنات.. الله يصلح حالهم، أدب إيـه؟..
ذوق إيه؟.. حلاوة إيـه.. الله يصـلح

حالهم.

يعني لو فيه عريس تجوزه واحدة منهم.

قلت لك يا منصور، دول زي أخواتـك بالضبط، ومادام العريس أنت موافـق عليه أنا ما أقـدرش أرد لـك طلـب.

يا عم عباس.. الحاج صالح باختصـار عايز عروسة بنـت حـلال.. عنـدك عروسة بقى يا سيدي للحـاج صـالح؟

هو إحنا قـد المقـام.. الحـاج يـؤمر مش يطلب، يؤمر وأنا تحـت أمـره، وربنا يعمل اللي فيه الخير.

يندفع الحاج صالح قائلاً:

ياريت يكون لنا نصيب عندك.

والتقطت أذنا نفيسة - من وراء الجدار - كل هذا الكلام، ها قد حانت اللحظة المناسبة، ثمة اتصال خفي بينهـا وبـين زوجها، فهو يعرف أن الكلام كله قد وصلها، ويتصور أنهـا تصرفت وهيأت الأمور مع ابنتها على أحسن ما يتمنى، ثـم نادى بقلب يزغرد بالفرح.

هاتي الشاي يا شلبية.

تظهر شلبية وهي ترتدي ثوب الحياء والخجل، تعثـرت قدماها، أحمرت وجنتاها، لم تحلم بأن ما أحبته سـيقع بهـذه السرعة، لابد أن دعاءها عند مقام الشيخ مع زميلاتهـا قـد استجيب، ما فكرت في شكل زوج المستقبل القريب، ولا في سنه، ولا في صحته، إنما هي فقط، تود أن تـزف، سـيغني لها، ستلبس الفستان والطرحة، سيتحقق حلمـا كـان بعيـدا المنال.

ستعمل شلبية بنصائح أمها: "الراجل ما يعبـوش غيـر جيبه.. هتودعي الفقر يا بت يا شلبية.. هتلبسي اللي عمـرك ما لبستيه.. هتتهني وتبقي زي الهوانم، بكرة تفتكري كـلام أمك، وتدعي لي وأنتي بتزوري الرسول، والنبي دي طاقـة القدر أتفتحت لك، بس يا حلوة ما تنسيش أمك حبيبتك!".

تقدمت وصينية الشاي بين يديها، ليكن بعد ذلك ما يكون، فليس أسوأ مما هي فيه!

أتفضلوا الشاي.

يحاول عباس أن يستبقي الابنة، حتى يسـتطيع صـالح الاستمتاع برؤيتها، وهو يتابع نظراته، ويلقيها على وجهـه،

لعله يسبر أغواره ويطالع الاختلاجات التي استولت على كيانه الهزيل..

إيه يا بنت خايفة من إيه؟ مفيش حد غريب.. مش أنتي اللي عاملة الشاي برضه.. سلمي بقى على الضيف.

بيد مرتعشة تقدمت، بنظرة من بين أهدابها التقطت شكل صالح، وهو يتأملها من الرأس إلى القدمين، بعينين شبه نائمتين، إنها ليست سمراء، وهذا نصف نجاح الصفقة، وقد يكفي هذا، يكفي أنها بيضاء، يكفي أن تكون قمحية اللون، يكفي ألا تكون سمراء، طويلة الرقبة كإحدى المطربات المعروفات بالضغط بسنتيها الأماميتين على شفتها السفلى، أثناء الغناء، وبعد الغناء.

البنت لا تتعدى العشرين عاما بأي حال، ويدور رأس صالح بسخونة التصورات.. البنت لو تنعمت شهورا معدودة لأصبحت جميلة، ممتلئة بالدفء والنضارة، واستمر صالح يتخيل ويتصور، حتى بدأ كالنائم تماما.

تابعها بنظرات ملتهبة أثناء خروجها، بعد دقائق ادعـى عباس العطش فطلب من أهل البيت كوبا من الماء، رغم أنه ما تعود أن يشرب الماء في أكواب، وإلا فما وظيفـة القلـل الأثرية الذي ذهب بعض لونها وتكسرت رقابها من أمـاكن متعددة، لكنه كان يعرف مدى قدرة زوجتـه نفيسـة علـى التصرف، من أي مكان ستأتي بكوب مـن الجيـران، ولـو ذهبت إلى الجن الأزرق، إنها امرأة قادرة على التصرف.

أتفضل الميه يا با...

تناول منها الكوب، رآها أكثر ثباتًا وجرأة، وهي تقتـرب من صالح لتشعل في جسده الدفء، رغم أنـه كـان اتخـذ قراره، وازداد اقتناعه بها، وانتابته عجلة الشـباب، سـينعم معها بحياته، سيكون كل ما يجود لها به مرضـيا، سـتقدره وتحترمه وتتمسك بالعيش معه خوفًا من الموت في حياة لمس بعينيه مدى قسوتها.

بالنسبة إليه، لا يريد إضاعة الوقت، أنه أقل ما يملكـه، وأثمن ما يملكه فيما تبقى له من عمر، يعرف أنـه يريـد.. والفتاة تريد.. وأمها تريد.. وأبوها يريد، ومع ذلك، لا مـانع

لديه.. لماذا لا يستمتع بكل دقيقة من هذا الوقت بدل الضائع من عمره الذي يكاد ملك الموت يقترب منه؟

لا معنى للانتظار حتـى الغـد، لا معنـى لـذلك، ولا ضرورة، وبقلب مفعم بالحماس، قال:

شوف يا عم عباس، أنا طالـب القـرب
منك في كريمتك، لأنـك راجـل طيـب
وأنا حبيتك.

لم يتمالك عباس نفسه، لم يستطيع تصـنع التفكيـر، ولا طلب مهلة لتدبير الأمر فانفجر قائلاً وقلبه يصفق.

أنا قلت قبل كدا.. أنت تؤمر، والبيـت
بيتك، وأنت أحسن من يصون عرضنا
أكرمك الله.. إذن على بركة الله.

تدخل منصور في هذه اللحظة قائلاً:

مش تسأل البنـت الأول يـا عـم
عباس؟

احمر وجه عباس غضبا، تحكم في انفعالاته، وحاول أن يقول بهدوء:

كدا تزعلني منك يا منصور، أنت تعرف

إن حد له رأي تاني في البيت غير رأيي
.. عيب على شنبي ده.. دا بيت أصـول
يا أبني، وألا أنت مـش عـارف عمـك
عباس؟

حاول منصور أن يتغلب على لحظة الإحراج التي شملته بقوله:

ما تزعلاش يا عم عباس، ده الكلام اللـي
بيتقـــال فـــي المناســبات الســـارة.
تاني يا منصور.. الكلام دا مـا يـتقلش
عندي.. أنا وافقت يبقى خلاص،

ولكي ينتهي منصور من أعباء الدور الذي يقوم به، قال بسرعة:

خلاص يا عم عباس.. نقرأ الفاتحة
يعني.

في الحال قرأوا الفاتحة معا، وزغردت نفيسـة وعبـاس ينادي:

الشربات يا حاجـــة.

لطالما شاركت نفيسة بالزغاريد فـي أفـراح الجيـران والأقارب، كانت تنال عنهـا أشـياء مـن أهـل العـريس والعروس، اليوم تزغرد لنفسها، ولماذا لا تغرق البيت كلـه بالزغاريد؟

رواد صالون حلاقة الأسطى حسـبو، كـانوا أول مـن وصلتهم أصوات نفيسة، ضربوا كفًا بكف، فلا تزال لعنـات عباس في آذانهم وهو يصب السخط على مروان حين ظـن موافقته على تزويج ابنته من صالح!!

على أصوات الزغاريد، شعر صالح أن البيـت أصـبح بيته، يهمه أمره، من حيث شكله وإصلاحه.. مـا أجمـل أن يكون نافعا لنفسه ولأهله، يستطيع أن يدخل السرور إلى قلب الرجل وزوجته وابنته، يمكنه إصلاح هيئة البيت على قدر ما يسعه الإصلاح، وتفتحت شهيته للحياة بكاملها. في تلك الآونة شعر منصور أن مهمته قد انتهت بالنجـاح، ولا حـرج إذا استأذن وانصرف لشأنه، طلب من الرجلين أن يسـمحا لـه بالذهاب فأذنا له بارتياح، وكأن هذه كانت رغبتهما قبـل أن تكون رغبته.

بانصراف منصور، انفتحت شهية صالح لتناول الطعـام، وهو الذي كان منذ سنين يستقبله بضيق وضجر، فدس يـده في جيبه، أخرج قبضة من فئة العشرة جنيهات، مبلغ هائل لم يتذكر عباس أنه امتلكه في حياته.

هكذا يمكن أن يقر بأن الحلم قد تحقق جزء منـه، وهـو يصيح بأعلى صوته، وعيناه تجريان على وجه صالح حتـى خرج من الغرفة وصوته لا يزال يرتفع من فرط الفرح.

تعالى يا ست نفيسة.. اشتري لنا أحسـن ذكر بط في البلد، العروسـة هـي اللـي تطبخه.

وبعد أن صمت لحظة. صاح مرة أخرى:

الشـيخ صـالح عـايز ياكـل مـن أيـد العروسـة.

وأريقت دماء ذكر البط، وعباس شنبو يحاول أن يتـذكر آخر مرة أريقت فيها دماء دجاجة أو بطة في بيته، فلم يتذكر أبدا!!

(٣)

فكر في استدعاء منصور ليتناول الغداء معهم، لولا دوره ما دعاه إلى طعام، ولا ذاق طعما لشاي في بيته ومـن يـد زوجته نفيسة التي بدت له كالشعلة، متوهجة فـي حيويـة، وهي تروح وبيدها السكين التي لا تزال أثار دماء ذكر البط عليها، وهي تأتي بحلة ترقد في بطنها الذكر، وهـي تغرقـه بالمياه، وهو يدرك أنها كانت تلعن الفقر في سـرها بوجهـه الكالح.

لم يأت منصور إلا بعد أن أتوا على الذكر كلـه، وكـان الشيخ صالح يقاوم النوم بشرب الشاي، وحين شاف منصور طلب أن يصطحب خطيبته إلى المدينة ليشتري لها الملابـس التي تليق بوضعها الجديد.

وفكر في لحظة لو يستطيع أن يضعها في مغسـلة آليـة لتأتي على تراكمات قديمة تجمعت في أماكن كثيرة من جلدها لفعل، لكنه قال لنفسه.. انتظر يا صالحا، كل شيء سيأتي في وقته.

ويركب الجميع السيارة، ونفيسة تصر أن يأتي منصـور معهم، فما يزال له دور تتشكل ملامحه في رأسها، وتنطلـق السيارة بين ألف علامة تعجب ترسمها أهل الحارة.

بعض الفضوليات ذهبن للسلام على شلبية. مدت يدها من الشباك في دهشة واستغراب، وقد تعالت تعليقات زبائن حسبو الحلاق بلا خجل، وأن كانت غير مباشـرة، فقـد وصـلت معانيها إلى الجميع باستثناء صالح الذي كان غارقًا في دفء مقعده بجوار عروسه شلبية.

وبتوجيهات من منصور الذي يعرف بعـض الأسـواق المهمة في المدينة، انطلق السـائق بسـيارته حيـث توجـد الفترينات التي أخذت بعقول عباس وزوجه وابنته.

دنيا أخرى غير تلك التي خلفوها وراء ظهورهم، عـالم غارق في البريق والجاذبية، تعلقت الأبصار بنجومه، نسـوا الأرض وطنين الذباب وخـوار البهـائم ونقيـق الضـفادع ولدغات الناموس.

وانتابت صالح حمى شراء كل ما تقع عليـه عيـونهم، يدفعه إلى ذلك رخص الأسعار رغم إنها كانت فـوق خيـال

أبناء القرية، وكان منصور كلما اشترى الشيخ شيئًا يدفعه إلى شراء المزيد حتى يثبت جدارته لدى عباس.

وبعد أن اشترى الشيخ صالح عدة فساتين لشلبية، وأحذية وملابس داخلية، لم ينس نفيسة فهي الخير والبركة، وكـذلك عدة جلاليب من أقمشة فاخرة لعباس، وأيضا أكثر من حذاء.

ويطفر الفرح على وجه عباس، يقول: هذا كثيـر علـى قلبك يا عبس.. يخشى أن تنتهي به الحياة قبـل أن يسـتمتع بشيء من هذا.. سيكون باردا وقاسيا ذلـك المـوت الـذي يستكثر على مثله التنعم ولو لأيام قليلة بهذه السعادة.. لتنتظر قليلاً أيها الموت.. انتظر!!

لقد تغير كل شيء في أقل من نصف يوم، فما باله إذا مر به عام أو بعض عام؟!.. ما الذي ستكون عليه وجه الحياة؟!!

آثر الشيخ صالح النوم في أحد فنادق المدينة وهو يـدس في يد عباس من المال ما يمكنه من إصلاح بيتـه ومعالجـة ثقوبه وإزالة ما عليه من خيوط العنكبوت، ووعد أنه سيعود إليهم في الغد.

وبسرعة أعدوا الغرفة المشمسة والمطلة علـى الشـارع على أحسن ما يستطيعون لتناسب صالحا، واشتروا منضـدة

وضعوها في وسط الغرفة، ومقاعد خشبية طويلـة محشـوة بالقطن، لتصلح للجلوس والنوم عليها.

ارتاح صالح في الإقامة عند عباس، مع أن الحجرة التي فرشوها له لم تكن بجوارها دورة مياه، إنما من مميزات هذه الحجرة، أنها كانت لها بابا مسـتقلاً يفـتح علـى الشـارع، ويستطيع منه أن يدخل ويخرج كيفما شاء.

الوضع الجديد دفعه لأن يجاهد حتى يبـدو فـي صـحة جيدة، وحاول المستحيل حتى يبتعد عن دهاليز خريف العمر الرطبة، وكان عندما كلما أتى إليه منصور للزيارة، لا يمـل من الرجاء لينهي كل الإجراءات الخاصة بـالزواج، دون أن يعيق خطواته شيء من المال، فالميزانية مفتوحة!

خلال أسبوع واحد، تم عقد القران، زفت العروس إليـه في أحد فنادق المدينة، بعيدا عن عيون والسـنة السـاخرين والحاقدين من أهل القرية، حيث أنفق هناك شـهر العسـل، أنجز خلاله منصور كافة إجراءات سفر الزوجة، بينما هـو طوال الوقت يبدو مثل صغير لا يزال متشبثًا بـذيل جلبـاب أمه.

*****

شهر كامل قطعته نفيسة بعيدا عن أبويها، وإن كانت أمها يكاد لا يمر يوم إلا وتكون في زيارتها، غير إنهـا اشـتاقت لكل شيء هناك في القرية.. البيت الرمادي بأركانـه التـي تتداعي وتنهار، وجوه الصديقات الآتي كن يتمسحن بالضريح معها ليتزوجن.. تشتاق إلى سماع التعليقات الملتويـة التـي كانت تستهدفها أحيانًا من دكان حسبو الحلاق لكـل شـيء تشتاق، حتى رجع بها صالح في سيارة، ظل سائقها يضـغط على آلة التنبيه بيده استجابة لما طالعه في عيني نفيسة.

ويهتز شارب عباس فرحا، حينما رأى ابنتـه وزوجهـا ونفيسة يطلون على المارة من الشرفة، ثم تمطر نفيسة ابنتها بوابل من القبلات، ولا تجد حرجا من فعل ذلك مع صـالح على مرأى من الناس، ولا يجحد الشيخ في ذلك أي حـرج، وكأنها تضع على رأسه إكليل النصر، وتمنى هو الآخر لـو أنها احتضنته كثيرا، كثيرا.

البنت كما زعم أهل القرية، مسافة شـهر واحـد امـتلأ جسدها، أصبح وسطها ممشوقًا، في فسـتان محبـك يحـيط بخصرها، ومن هناك في قلب الشرفة، كانت تراهم من وراء نظارة شمسية تضيف سحرا وغموضا على ملامحها، تتـأنق

في حركاتها حين تمشي في حذاء الكعب العالي، لا تعتقد هي أنها لا تستطيع واحدة من صديقاتها المشي فيه خطوة واحدة.

وتضرب النساء بكفوفهن على صـدورهن.. أيمكـن أن يحدث هذا لفتاة من قريتهن في ظرف شهر واحد؟.

وهي تنظر إليهن من وراء النظارة، تستبعد أن يهنأ لهـا العيش بعد ذلك في بيت عبس بعطرها الذي يفوح فـي كـل مكان، لينعش الصدور ويلهب خيال الفتيات التي سبقتهن في كل شيء، ولتكن مثار أحاديث الرجال والنساء، وهي تسـلم مودعة:

البنت كانت حلوة وإحنا مش واخـدين
بالنا يا جدعان.

ويعلق أحد الشبان:

حلوة مين يا عم (لبس البوصة
تبقى عروسة).
لأ.. دي حلوة بجد، بس كانـت محتاجـة
الشوية اللـي عملهـم الراجـل الصـقر،
الراجل دا يظهـر بـيفهم فـي القمشـة
كويس، دول يا عم ناس لفت الدنيا كلهـا،

وعـارف هـو بـيحط فلوسـه فـين؟
طيب شد حيلك يا صاحبي، عباس عنـده بنتـين تـانين، الحـق لـك جـوهرة منهم.
الحق مين يا عم، عباس الوقت بقى حاجة تانيـة خـالص، سـبحان مغيـر الأحوال، عمره ما هـي رضـى يجـوز بنت تانية في مستوى أقل من أختها.

ودارت الأحاديث والناس لا يملون، مـنهم المعجبـون، والمتعجبون، والذين زاد إيمانهم بقدرة الخالق علـى تغييـر حال المخلوق في طرفة عين، ومنهم من يتحرك الحقد فـي قلبه.

صديقات شلبية تمنت كل واحدة مـنهن أن تصـبح فـي مكانها، لكن يرفضن الزواج على هذه الطريقة، إنما بعـد أن رأين بعيونهن الأحلام التي أصبحت أمرا واقعـا، لا مـانع الآن، وربما همست إحداهن في أذن شلبية أثناء وداعهـا أن ترى لها زوجا مماثلاً.

وقبل أن تنصرف إحدى النساء من أمام شـرفة عبـاس شنبو تتمتم:

والنبي ونضفتي يا شلبية.. جاتنا نيلة في حظنا وحظ أولادنا الهباب.

(٤)

سافرت شلبية وزوجها، وفي رأسـها مليـون نصـيحة ونصيحة من نصائح أمها، ووعت تماما لماذا تزوجت؟.. كما لقنت أن زوجها يمكن أن يكون آخر نزوة لذلك الكهل، وأنه ربما يتخاص منها حالما يعود على رشده، أو تتخلـى عنـه صحته، أو تضغط عليه أم الأولاد.

لذلك لابد يا شلبية أن تتصرفي بمكر الثعالب، أو لعلـك تستفدين من المكر الخبيث الذي نضج مبكرا فـي حياتـك، وكان أول اختبار لها في حياتها الزوجية، حـين اسـتعملته وهي تحضن زوجة الشيخ صالح الأولـى وتنحنـي علـى ذراعيها قائلة:

أنتي كل اللي هنا.. اعتبريني بنتك
الكبير.. أنا تحت أمـرك وأمـر
الحاج.

وذرفت الدموع، أطلقت الشهقات، حتى رق لها قلب أم الأولاد تماما، واعتقدت والـدموع تغـرق وجههـا أنهـا

صادقة، وفي نفس الوقت غمرت الشيخ بعواطفها، كأنها المرأة التي خبرت أسرار الرجال وعرفت مواطن الضعف فيهم، لدرجة أن الرجل بات يتصور أنه بدونها لا يحتمل الحياة، وهي الواحة في صحرائه، هي نسمة صيف حانية بعد حياة أصيبت بالجفاف.

لم تضع الوقت. استحوذت على أي قدر من النقود تصل يديها، وكم هي المرات التي احتالت فيها عليه؟.. مرة تدعى أن قرطها الذهبي ضاع، تتظاهر بالحزن.. يغتاظ الشيخ، لا بسبب فقدها للقرط، وإنما لأنها لم تعد تدلله، يعالج الأمر بشراء قرط جديد. وبدأت بشتى الأساليب تستنزف الرجل، وهو راض، ويسقط بين يديها المزيد من المال، وهي تخفي كل ما حصلت عليه، ولما شعرت بأنها جمعت الكثير والكثير، انتابها شعور بالغربة والوحدة، لم تمتلئ أوقاتها بالاستماع إلى شرائط الأغاني التي تحمل عبقًا من روائح القرية، ولم تسعد بالجلوس طوال تلك الأيام أمام التليفزيون، ومع أنه أخذ من وقتها الكثير، إلا أن كل ما شهدته كان بلا شوق ولا مذاق له.

عام بكامله، استخلصت خلاله شعورا بأن الملل في بعض الأحوال أثقل على النفس من الفقر، لـن تـتخلص منـه إلا بزيارة إلى أهلها، فالطقس هناك جميل، سيعيد إلـى صـالح شبابه ويجدد استمتاعه بالحياة.

هناك في بلدتهم، حيث الاخضرار والحيوية، ستكون لـه طوال الوقت بعيدا عن أم العيال التي نال منها الزمان، واهتم الرجل للغاية بشراء الهدايا لأهلها، وكان سـخيا خصوصـا وأنها أول زيارة له بعد الزواج.

وبعد أن حطت بهما الطائرة في مطار القاهرة، اسـتقلا سيارة إلى القرية وكانت مكدسة بشتى ألوان الأقمشة، وقـد اختفى سقفها تحت الحقائب التي حركـت أخيلـة الجيـران واستحوذت على تفكيرهم.

ترى ماذا تحويه كل هذه الحقائب؟.. لابـد أن الحقيبـة الصغيرة محشوة بالنقود.. لم لا؟.. واتجه خيال أهل القريـة على أبعد ما كانت تصوره لهم أوهام العفاريـت، والنداهـة والمارد الذي يظهر للناس فجأة ويسد عليهم منافذ الطريق.

عباس شنبو وزوجه نفيسة أصيبا بنـوع مـن الـذهول، عباس لا يصدق عينيه، في وجهه فرحة طفل كان يحلم وهو

صغير بأن يملك حذاءا، في هذه اللحظة، كيف يتصرف مـع الجيران الذين جاءوا لاستقبال ابنته شلبية وعيونهم الفضولية تحصى عدد الحقائب، وحجم كل واحدة، ثم التغيرات التـي طرأت على شكل ابنته شلبية.

أصبحت ممتلئة ونضرة، على وجهها مسحة خفيفة مـن المساحيق والأصباغ، كل ما فيها أخـذ لونًـا جديـدا، وقـد حرصت أن ترش على ملابسها عطرا عرفت أنـه سيسـبق خطواتها، ليغزو الصدور والأنوف. سلمت بيد ناعمة علـى من جاء من رفيقاتها.. هن كما تركتهن، عجفـاوات نفـس الوجوه المتربة، قسوة العمل في الحقول، لم تترك فيهن شحما ولا لحما، لا يزلن يقمن بأعمال يعجز عن القيام بها أقـوى الرجال، من شتل الأرز وزراعة الذرة، إلى جني محاصـيل القطن والغلال.

هن كما تركتهن فقيرات، حالمات بالزواج من رجل حتى ولو كان كهلاً من مسني دول البترول.

ولكي تنهي نفيسة هذا الاستقبال لابنتها، راحـت توسـع خديها لثما وتقبيلاً، ثم أخذتها في حضنها، وهي تتحسس مـا

يتحلى به صدرها وأذنيها من ذهب، وفي نفسها اتخذت أمرا، لم تسر به لأحد.

بدعوى الخوف من عيون الحاسدين، طلبت من شلبية أن تترك حليها في البيت، وعند عودتها تأخذها، وافـق صـالح على الفكرة، وأمر زوجه أن تسلم أمها معظم حليها.

ومضى ما يقرب من الشهر، خلاله كانت تقـام الـولائم لصالح، ونفيسة تدعي دائما أنها تكلفـت ضـعف تكاليفهـا الحقيقية، والرجل دائما كان مثل الحقيبة المثقوبـة، تتسـرب منه الأموال، يدفع دائما بلا تردد، وبلا أدنى شك في قيمـة التكاليف.

قبل الرحيل بيوم، تصرخ نفيسة مولولة تلطـم، خـديها بشدة، تقطع شعرها، كمن أصيبت بلوثة، وصالح يربت على كتفيها مذهولاً.. سائلاً:

ماذا بك؟

كأنها لم تسمع، ومضت في تنفيذ خطتها، وذلك بأن شرعت في شق جلبابها، وعباس يجري، ويلف حولها صائحا:

إيه اللي حصل يا ولية يا مجنونة..

اتكلمي فيـه إيـه.. حـد مـات؟

وهي تلاطم:

يا ريت يا خويا.. يا ريت.. يـا ريـت
البلاد كلها ماتت.

وتكرر كلمة يا خويا بأعلى صـوت، فيصـفعها عبـاس بصوته:

جننتينــي يــا وليــة.. الله يخــرب
بيتــك.. فيــه إيــه؟.. انطقــي!
أتسرقنا يا عباس.. أتسرقنا يـا خويـا.

وبصوت مليء بالأسى والنحيب، أضافت:

جات الحزينة تفرح مـا لقتلهـاش
مطرح

يتدخل صالح بالسؤال:

وحدي الله بس وقولي إيـه اللـي
حصل؟

وهي تتابع الدق بقبضتها على صدرها.. قالت:

خدها الغـراب وطـار.. خـدها الغـراب

وطار.

تساءل صالح في براءة الأطفال:

مين اللي خدها الغـراب وطـار.

الصيغة يا خويا.. دهب الغلبانة.

تنفس الرجل الصعداء، وقال وهو يسترد أنفاسه:

فداكم يا حاجة.. ما تزعلي روحـك..

أحسن منها ألف مـرة هيكـون عنـد

شلبية.

انتهزت اللئيمة فرصة هدوء صالح، وعدم التفكيـر فـي قيمة ما ادعت أنه سرق وقالت:

وحاجتنا يا خويا، كل حاجتنا اللـي

راحت..

ولا يهمك يا حاجة، سأعوضكم يا

أم

الغالية عن حاجتكم مرتين.

مضى كل شيء على ما يرام، بل وعلى أفضـل وجـه كانت تحلم به نفيسة، فقد أصبح بين يديها الكثير، حلي، نقود استخلصتها من فروق تكاليف الولائم، يضاف إلى ذلـك مـا

جمعته ابنتها من أموال، وما حملته إليها من حقائب، فيها من الحرير والعباءات الفضفاضة، والتي ستجعلها مـن أثريـاء القرية.

وعند الرحيل أعطى صالح لها مبلغًا لا بأس بـه، وهـو يطيب خاطرها، مؤكدا أنه لا يزال عند وعده لها بالتعويض عما صدق بأن الغراب أخذه وطار، بينما كانت شلبية تقـول لأمها بعينين تلتمعان بذكاء شرير (عليـة الشـوية دول يـا أمه!).

(٥)

عادت شلبية مع زوجها إلى بلده، زادت جرعات حنانهـا له، وهي التي تتمنى أن يتوقف نبض قلبه الآن قبـل غـد، ولكن مادام مصرا على النبض، فليستمر حتى تـتمكن مـن اقتناص ما يغنيها طوال العمر.

إنها في معظم الأوقات، تشـعر بأنهـا لا تقـوم بـدور الزوجة، بقدر ما تعتقد أنها تقوم برحلة عمل، لابد أن تحصل من ورائه على أكبر عائد ممكن.

كان هناك، منذ عدة شهور عملاً موسميا ينتظرهـا فـي حقول القطن، تؤديه تحت فحيح أنفـاس الشـمس وجفـاف الحلق.. اليوم، تؤدي عمل الزوجة لكهل يضع نفسـه بـين يديها، كطفل يحب أن يستريح على صدر أمه.

كأنه منوم مغناطيسيا، توجهه حيث أرادت، تسلبه وهو لا يشعر، تأخذ ما تستطيع الحصول عليه، وهـو يبتسـم فـي وجهها، بينما كانت أم الأولاد، تبدو خارج اللعبة، لا يعنيهـا

من أمر زوجها، سوى أن تكـون محاطـة بـدفء أنفـاس أولادها.

إنه في حالة الوهن المسيطر عليه، وضعف الإرادة التي استولت عليه، لم يكن أمامه سوى طريـق الانصـياع لهـا وتملقها، ويستمر في العطاء ما استطاع، ليعوضها عن قوته التي بدأت تتلاشى، وأصبح بنظر شلبية، يدفع تعويضا وجب عليه، وهي تأخذ تعويضا تستحقه، ضميره مسـتريح وهـو يعطي، وضميرها أكثر راحة وهي تأخذ!.

هي صورة من أمها، تعرف كيف تحصل على ما تريد، باللزوجة، بالمسكنة، بذرف الدموع، والجيران يعرفون أمهـا نفيسة، لا أحد فيهم صدق أن شيئًا مما كانت قيمتـه يضـيع منها أو يسرق، ولو أقسمت بأغلاظ الإيمان.

من يسرق نفيسة؟

الشيطان نفسه لا يستطع أن يـؤدي أعمالهـا اللعينـة، الأفضل له ألا يضيع وقته!

وبدأت الأحاديث تشاع في أزقة القريـة وبـين جنبـات البيوت:

شوفوا الولية عملت الشـوية بتوعهـا،

وأكلهـــــم الراجـــــل الغلبـــــان
هو لسه شاف حاجة يـا حبـة عـين
أمه.. ياما في الجـراب يـا حـاوي.
يستاهل كل اللي يجرى لـه.. راجـل
زي دا رجله والقبـر، وعنـده عيـال
ومراته معاه.. إيه اللي يخليـه يتجـوز
بنت زي دي؟.
العجيبة يا أختي إن الراجل باين عليـه
مبسوط وفرحان، وقل إيـه هيعـوض
نفيسة وبنتها عن كـل اللـي أتسـرق،
وفرحان قوي!
هو وقع في إيد مين؟!!
الولية دي ولية شاطرة.. فرصة
جات لها.. تسيبها؟ مش أحسـن مـن
غلاثتها على النـاس.. أنـا لـو فـي
مكانها أعمل زيهـا واكتـر.. طيـب
بـــذمتكم أنـــتم مـــش بتحســـدوها.
بس مش بالنصب والأونطـة.. حـرام

يا عالم.. هو إحنا عايشين في غابـة.
ومحموقة ليه كدا، على مهلك شـوية،
أحسن ينط لك عرق.. إحنا مـا لنـاش
دعوة.. نفيسة تعمـل، بنتهـا تعمـل،
مالنا إحنا.

نفيسة ترى بحدسها من وراء جدران البيت، تشـتم مـن رائحة الهواء ما يجري على ألسنة الرجال والنساء بـالحرف الواحد، لم يضايقها ذلك، فطالما يحسدنها، إذن هي أفضل من الجميع، وأنه لا مانع لديها أن يموتوا بغيظهم.

ولكي تمعن في إشعال حنقهم، رفعت صوتها فـي دلال قائلة:

عايز تاكل إيـه النهـار ده يـا سـي
الحاج؟.. أعمل لك سمك، والا فـراخ
محمرة، والا مش اللحمة أحسن؟!

يفهم عباس ما ترمي إليـه امرأتـه مـن وراء الكـلام، فيشارك هو الآخر بصوت جهوري:

والله يا حاجة إحنـا زهقنـا مـن
الحاجات دي..

وبعد لحظة يسألها:

مفيش أكلة فسيخ على مزاجك؟

تقدح عيون نساء مجالس النميمة بالشرر، تقول نظراتهن:

الله يرحم أمك يا عباس، لو شافت الأملة اللي أنت فيها، ما كـانتش ماتت!

وتتلاقى أصواتهن في وقت واحد:

ياللا نمشي مـن هنـا قبـل مـا ينقطونا.

ولكي تغيظهن أكثر، قامت بارتداء عباءة وارد بلاد بره، وزينت يديها بالأساور الذهبية، وحرصت أن تكشـف عـن معصميها، حتى ترتفع أصوات شخشختها وتملأ الأذان، ثـم مشيت على مهل مقلدة نساء الأغنياء اللاتي كانت تسـتجدي منهن وكانت يديها قابضة على مكنسة طويلة الذراع، وبهدوء وصنعت من قشر فاكهة ألقته عمدا هرما صغيرا، متمنية أن يراه المارة، وزوجها سعيد جدا بما تضعه أثناء وقوفـه فـي الشرفة، وهي تنحني، وهي تفرد جسمها، وشاربه يكاد يلمس شالها، وتغطي وجهه ابتسامة خفيفة توحي بالفرح.

ثم أرسلت نفيسة نظراتها إلى بعيد، وتساءلت:

يا ترى يا بت شلبية عاملـه إيـه
الوقت مع جـوزك يـا ضـنايا؟!

كان الشيخ صالح لا مطلب له في الحياة سوى إرضـاء شلبية، وشلبية لا تجد غضاضة في طلب المزيـد، والرجـل يعطيها عن طيب خاطر، ولا يظن فيها غير الخير.

رأت من غير الطبيعي أن تطلب إليه أن يذهب بها لرؤية أهلها، إذا لا يزال جسده الواهن، يعاني من أثر رحلته إليها، ومع ذلك، أعملت مكرها قائلة:

مش عايز عمك عباس يجي يعمل
عمره، أصول تدعيه هو وأمي يا
راجل، أهم بيجوا يسلونا شـوية.

لهج لسانه بلا تردد:

والله تكرمي يا شـلبية، تكرمـي
يا عيني.

ودفع صالح ثمن التذاكر من جيبه، حتى تكاليف استخراج جوازي السفر، وقيمة التأشيرة، والإقامة، حتى الهدايا عنـد العودة.

كان سفر عباس وزوجته إلي الأراضي المقدسة أقـرب إلى رحلات السياحة، منه إلى التطهر وإحياء الشعائر الدينية، وسافر الزوجان، لا برا، ولا بحرا، ولكن بالطائرة!.

رحب بهما صالح أيما ترحيب، تجول بهما - ما استطاع - في مدن السعودية والأماكن المقدسة ومن خلال التجـوال، تعرفت على صديقات ابنتها، وبسهولة ارتدت ثياب البسـاطة والوادعة، وتلقت دعوات العديد منهن، وفي كل دعوة، كانت تخرج وبين يديها عطاء من مال أو ثياب.

ولم تكن تنسى أن تشدد عليهن حتى لا يذكرن شيئًا مـن الهدايا لابنتها شلبية، لكن شلبية لاحظت كثرة مـا تسـتجلبه أمها، فهبت في وجهها قائلة في سخط:

كفايـة يـا وليـة.. هتفضـحينا فـي
بلاد الناس.. لهو أنتي منشار؟..
الله يخرب بيتك! بس يا هبلة، وربنا مـا
أنتم عارفين،لا أنتي ولا أبوكي اللي رقبته

بقـت أتخـن مـن جـذع الجميـزة.
اللي بتعمليه دا اسـمه شـحاته.. أنتـي جاية تشحتي يا أمـه وتفضـحيني فـي بلاد الناس

طبطبت نفيسة على ابنتها وقالت:

داري أنتي علـى شـمعتك، وسـبينا نعيش.

ماشي يا أمـه.. بـس بـلاش أمـور الشحاته دي.

يا بت دول هدايا، والنبي قبل الهديـة، وأنا ما أقدرش أزعل حد وما خدش منه هديته.

وأرادت شلبية أن تقطع حبال الحديث في هذا الموضوع مع أمها، فقالت:

طيب علشان خاطري.. كفايا اللي هبرتيه منهم.. كفايا بقى لحد كدا.

أقسمت - لكي ترضيها - أنها لن تمد يدها بعد الآن لأي واحدة من جيرانها، وتركتها بحجة شراء بعض الحاجيات من السوق.

في الطريق، استوقفها شكل امـرأة قابعـة أمـام أحـد المساجد، أخفت وجهها وراء الطرحة السوداء، وكلما خـرج إنسان من المسجد، وضع في كفها ما تيسر.

تزاحمت الأفكار على رأسها.. أكيد، لا يعطيها أحد أقـل من ريال سعودي، الريال تزيد قيمته عن الجنيه المصـري.. كم جنيها يمكن أن تجنيه تلك المتوشحة بالسواد؟

استوات علة نفيسة فكرة، يمكنها - بسهولة - أن تستخدم وجها من ألف وجه لديها، وعلى عتبة أحد المساجد بسـطت اليد، كل يوم في نفس الميعاد، تأخذ مكانها هناك وتعود بكيس مليء بالريالات، تضعه وراء حزام يلتف حول وسطها، وهي تشعر بأمها تمتلئ وتبتعد عن مناطق الفقر.

بينما كان عباس شنبو غارقًا لشاربه على شوربة اللحوم، مستمتعا بالنظر إلى وجه زوجتـه الـذي امـتلأ بالبيـاض والاحمرار، شلبية كانت الوحيدة التي يظهر عليها القلق:

كنت فين يا أمه؟

كنت عند خديجة صاحبتك.

استولى عليها السخط، كادت تسب أمها لأن خديجة كانت عندها منذ لحظات، ولم تتردد الأم حين قالت في قحة:

إيه يا بت.. عنيكـي كـدا مـش
مصدقاني.. أوعى فكـرك يـروح
لبعيد.. أمك ما عدتش بتمد إيـدها
لحد من جيرانك.

قالت شلبية لنفسها.. آه يا أخت الشياطين، لم يعد العقـل قادرا على معرفة ما تنطوي عليه نفسك.

أثناء ارتفاع صوت المؤذن للصلاة، استأذنت من ابنتهـا، فتوارت هي خلفها، تعقبتها، رأت يدها المبسوطة عند عتبـة المسجد، لم تخجل نفيسة إذ قالت:

يا بنتي تعبت شوية.. قلت
أستريح.. بلاط الجامع نضيف،
بصيت لقيت اللي خارج واللي
داخل بيراموا علي الفلوس، قلت
أخدها وأعطيها للغلابة اللي في
بلادنا.

سحبتها شلبية من أمام المسجد وهي تقول:

حرام عليكي.. أنتي جاية تعملـي عمرة

والا تفضحيني؟.. أنتي بتفضحي مصر كلها.

قولي إنك زهقتـي منـي، ومـن أبوكي.

وبصوت قاطع، أمرتها شلبية قائلة:

قومي يا أمه لمي حاجتك، وربنا يسامحك.

(٦)

عادت نفيسة وزوجها إلى القرية، ليكونا موضع اهتمـام الجميع، يبدو أن الخير يأتي في تسلسل، كما كان الفقر يطبق عليهما بحلقاته المحكمة، لكن الذي كدر مزاج نفيسة ظهـور ابنها عويس بين صفوف المستقبلين.

افترسته بنظراتها، أدركت أنه يرصـد بعينيـه الخيـر والحقائب التي يشعر بأنها متخمة بالكثير والكثير.

كان يبدو في بؤس وهو يجفف عرقه في ذيـل جلبابـه الدمور، ويمني النفس بثوب جديد بعدما أدت الجلبـات مـا عليها وأكثر حتى اهترأت أنسجتها وخيطت بقطع من الرقـع في أكثر من مكان.. هناك جلباب معطر ينتظره الآن في تلك الحقائب.

إنه على يقين بأن أخته تعرف ظروفـه جيـدا.. كيـف تنساه؟.. أبواه يعرفان حاله أكثر، ومهما كانت قسوتهما فلـن يضنا عليه ولو بفتات الفتات، وهذا يكفيه الآن.

انصرف كل من كان هناك، المباركون بسلامة العـودة، انصرفوا، لم يبق في المنزل سوى عويس ينعشه الأمل، حتى بعد أن صار أبواه يتظاهران بالتعب والتثاؤب، ثم قالت لـه أمه:

معلهش يا عويس يا بني.. عايزين
نريح شوية من التعـب.. السـفر
هد حيلنا.

لا يزال يعتقد أنه ليس غريبا عن أمه وأبيه، فقال:

ناموا واستريحوا وأنا قاعـد هنـا
شوية.

طاش صواب الاثنين.. انفجرا- معا - قائلين:

قاعد شوية!!

تمنت أن تطرده حتى لا يعود، فهي لا تحب أن تعطـي أحدا مما كسبته، إنها التي تعبت، إنها التي تسولت، إنها التي مدت اليد لكافة الأشرار والمحسنين.

ثم أدارت الكلام في رأسها، ورأت أن تصرفه بلطف:

قوم يا بني روح لمراتك وابنـك،

وهي الأيام جاية بكرة كتير.

طوال تلك الليلة، لم تغمض لعويس عين، أحـلام فيهـا يطير، أحلام لها جناحان وأحلام يرتدي فيها جلبابا فضفاضا من الحرير، حتى دخلت الشمس عليه مـن الشـباك، فقـام مسرعا إلى أمه:

صباح الخـير.

أجابت بامتعاض:

صباح الخير يا عويس.

تجرأ بعد قليل وسألها:

والله أختي وحشتني.. إلا

هي ما بعتتش ليه حاجة

معاكي؟

ودت أن تغلق الباب في وجهه، قائلة:

بعتت السلام يا عين أمك

بتسلم عليك.

ثم وجدت ذلك غير كاف، فأضافت وهي تلوي بوزها:

أختك بخيلـة قـوي يـا عـويس

وجوزها

طلع أونطة.

قال وهو يشعر أن أحلامه بدأت تتخلى عنه:

يعني الشنط دي كلها كانت مليانة

قش.

لم تتريث، أظهرت له العين الحمراء:

اللي جبته لنا يا ولا قرب خده.

تمالك عويس نفسه، عله يظفر منها بأي شـيء، دون أن يفكر في اللجوء إلى أبيه، فأبوه لا يملك حق القول معها، ولا حتى العطاء:

يعني يا حاجة ما فيش نفحة كـدا

من عند النبي لابنك الغلبان اللـي

مش لاقي الدقة.

شخطت في وجهه، انسحب من أمامها:

قوم جاتك نفخة تنفخك لما تفرقع.

قبل أن يخرج من الباب، استدار في مواجهتها قائلاً:

كنت فاكر الحداية بترمي كتاكيت.

تخلت عنه الأحلام، عاد للإنحاء من شدة الهموم، تمنى من قلبه زوال نعمة والديه.. أهما والداه حقًا؟.. أهي بالذات أمه؟!

العجيب في حياته، أن أباه وضع على حافة شباك الغرفة المطلة على الشارع جهاز كاسيت ضخم، يراه كل من يمر من أمام البيت، والذين ذهبوا بعيدا، كانت تصلهم كلمات الأغاني، وحسبو الحلاق لم يدع الأمر يمر دون أن يعلق عليه.

بص لعباس شنبو الذي كان يتحرك في الشرفة على إيقاعات المزيكة، وقال:

ماشية معاك يا عم.. اللي عطاك يعطينا!

في الحال هاجمه عباس قائلاً:

ما تبصش لفوق يا حلاق الغبرة،

تقوم تقع رقبتك تتقطم.

ويمر بائع الجرائد أمام عباس، لأول مرة يشتري في حياته جريدة، يؤكد الجميع أنه أمي، وعباس يرى قراءة الجرائد خاصة بالصفوة في القرية.. أليس هو الآن منهم؟.

بعضهم يملك أرضا وعليها مديونيات لبنـوك التسـليف والتنمية الزراعية، وهو لا يملك أرضا ولديه فلوس كثيـرة، ولدى زوجته فلوس وذهب.. ألا يسمح له ذلك بعدم الجلوس على المصطبة؟

وجد من حقه أن يأتي بكرسي، يجلس عليه أمام البـاب، تجاهل من كانوا يمرون عليه، كل ما كان يعنيـه أن يـرى شكله في مرآة حسبو الحلاق، شاي وجريدة وكرسي ورجلاً فوق رجل!!

من كانوا يجلسون هناك على المصـطبة ظهـر علـيهم الاستياء شعروا بعباس بأن ليس لديه أي مانع ليضـع بـوز حذائه في وجوههم، لم يطق أحدهم صبرا ورفع صوته قائلاً:

الله يرحم أمك أصلها كانت ناظرة مدرسة.

أخذ عباس رشفة طويلة من كـوب الشـاي، ثـم فـرد صفحات الجريدة وقال مثل كبار الملاك:

أنا عارف أن الحقد هيقطع قلوبكم

وسمع صوت نفيسة من الداخل وهي تنادي عليه، وأثناء قيامه قال في استنكار:

أنا مش عارف الناس دول

عايزين مننا إيه؟

وقبل أن يختفي في الداخل، شيعه أحدهم قائلاً:

هو حد هيحطك فـي دماغـه؟..

سايق

عليك النبي يا أبو جهل، قبل

ما تلقح علينا كلامك الهايف، أبقى

اعدل الجرنال المقلوب.

دخل على نفيسة، وفمه ممتلئ بالشتائم اندهش لأنها لـم تشتم أحدا، ولا تلعن أحدا، نفيسة ليس لديها وقتًا لتشغل فيـه نفسها بالناس، فكرها كله حطته في النظر إلى ابنتها الثانيـة، شلبية أصبحت مطمئنة على مستقبلها، إنما البنت الصـغرى لن يرتاح لها بال إلا إذا شافتها في بيت العدل، ويكون مـن قسمتها ونصيبها رجلاً طيبا مثل الشيخ صالح.

عرضت على عباس الأمر، قال: موافق، مع أنه يعـرف أنها لم تكن تنتظر موافقته في أي شيء، ثم متى كـان لـه رأيا؟..

متى كان لرأيك قيمة يا عباس؟

بعد كلمة (موافق) راح يثنى على فكر زوجتـه، علـى جواهر أفكارها، على حسن تدابيرها، ثم أضاف كأنه يـوبخ نفسه لكي يرضيها:

الفكرة دي كانت غايبة عني فين؟

.. صحيح كان لازم أدور على

مصلحتها زي أختها بالظبط..

وراح يفتل شاربه مرددا:

ها يحصل على إيدكي بإذن الله.

(٧)

يوم أن ركب عباس شنبو جهاز التليفون في بيته، شـعر كأن اليوم عيد، سروره الزائد علـى الحـد، دفعـه لتنـاول السماعة، رفعها إلى أذنه، ووضعها، ثم رفعها ووضعها، ثمة صوت حرارة التليفون مصحوبة بالخرفشة.

مع من يتكلم الآن؟.. يمكنه أن يطلب الحكومة.. يمكنه أن يطلب واحدا من المسؤولين الذين شاهد صورهم في الجريدة، ربما يكون غارقًا في مشكلة، قد يستطيع ونفيسة حل عقدتها.

إنه يستطيع القيام بأعمال مؤثرة، إنه يصـعد الآن إلـى أعلى خاصة وأن غالبية من يعرفهم لا يملكـون مثـل هـذا الجهاز، وحتى الذين في بيوتهم تليفونات، لا يحتاجون إليهـا إلا في حالات الحرائق، أو الاتصال بسيارة الإسعاف.

في حالات الحرائق يكون الاتصال بالمطـافئ عمـلاً لا فائدة منه، ففي معظم الأحوال، تأتي سيارة المطافئ بعـد أن يكون الحريق قد أصبح ذكرى أليمة، وتأتي سيارة الإسعاف بعد أن يكون المريض قد فاضت روحه وقابل ربه.

لا ينس عباس شنبو أن مسألة دخول التليفون إلـى بيتـه وقعت بعد مكالمة جاءته من شلبية..:

يا عم عباس.. بنتك هتكلمك بعـد نص ساعة على تليفون عم محمود البقال.

تتملق عينا الرجل عباس، عله يعطه شـيئًا، ولـو لعبـة صغيرة يفرح بها أولاده لقاء حمله هذه الرسالة، لـم يطـالع عباس شيئًا من عيني الرجل، نفيسة وحدها فهمت وتجاهلت، تركت الأمر لزوجها، وأثناء ارتدائها العباءة، سمعته يقـول للرجل:

متشكرين قوي.. إحنا جايين على طول.

انتزعت السماعة من يد عباس، قبل أن يرد على سـلام ابنته:

إزيك يابا.

تحاملت هي على صوتها، لونت نبراته بلهجـة حزينـة، طلبت إليها أن تكلم الشيخ صالح ليركب في بيـتهم تليفونـًا،

مدعية أن في ذلك مصلحة، على الأقل لـن يعـرف أحـد أسرارهم، وهذا أفضل بكثير مـن الوقـوف فـي الشـارع والتحدث بصوت عال أمام دكان البقال.

قاطعتها شلبية، كان كل همها أن تسألها عن أحوال أخيها عويس:

والنبي خدي بالك منه شوية..

ده غلبان قوي.

قالت نفيسة وأنفاسها مليئة بروائح الفحيح:

ربنا أعلم يا بنتي.. ده ابني..

حد يوصي حد على ابنه!

وبعد أن بلعت ريقها، أضافت:

بس وحياة الكعبة الشريفة.. ما تنسـيش تقـولي لصـالح علـى التليفون.

تحمس صالح لكلام شلبية، تعجب كيف غابت عنه هـذه الفكرة وهو الذي كان عليه أن يكون صاحب المبادرة؟.. ولم يمض يومان إلا وكان رنين جرس التليفون يدق فـي بيـت عباس شنبو.

وضع عباس التليفون في الغرفة المطلة على الشارع، لحكمة لا يعلمها إلا هو، تمنى أن يستمر الرنين طوال أوقات الليل والنهار، يسعده جدا أن يسمع المارة هذه الدقات..

إنها ابنته وزوجها، يريدان أن يطمئنا على وصول التليفون، تسابق نفيسة عباس في القبض على السماعة.. دائما تسبقه إلى ما يقصدانه، حتى في مشيتها معه، خطواتها تسبق خطواته.

يرفع كلاهما الصوت، ليسمعا المارة والجيران، ينخفض الصوت إذا كانت ثمة مطالب، بينما يقتحمهما صوت الأسطى حسبو الحلاق، قائلاً في برود لعباس:

يا عم وصي لنا الحاج صالح
يبعت لنا موسين حلاقة.

يترك السماعة لزوجته، ويذهب ليطل على الحلاق من الشرفة:

باين عليك يا حسبو مخك اتزحلق.

وبعد أن بصق في الشارع، أردف:

أوصي راجل محترم زي دا على
أمواس.. أما أنت بارد بصحيح؟

ترك حسبو الزبون على كرسي الحلاقة ووجهه غارق في رغوات الصابون، ثم قال بهدوء:

بلاش أمواس يا سيدي.. أطلب لنا
أي حاجة على التليفون.

أجاب عباس وكان يود أن يبصق في وجهه:

لما تيجي أمك تولد.. نبقى
نطلب لها الإسعاف.

تمتم الحلاق:

إسعاف لما يشيلك ويشيل مراتك.

ثم غادر عباس الشرفة قبل أن تنتهي شلبية من مكالمتها، سمعها تشكي الآم الغربة، وكلامها الكثير لصالح، لو أن لها أختًا كانت معها أو متزوجة بالقرب منها، لكان في ذلك سلواها، وكان الرجل يستمع لها ويتألم لألمها، ويفكر على ضوء أحاديث شلبية..

كان يفتش في الذاكرة عن عريس يصلح لأختها، وهي توضح له، أن فارق السن لا يهم، فها هي معه أسعد الناس، والشباب هو شباب القلب، وإن كانت تعني فيما بينها وبين نفسها أن الشباب شباب الجيوب المتخمة.

وجد صالح ضالته في صديق له، اقتـرب مـن حافـة النهاية، ما كاد صالح يفاتحه في اقتناص ثمرة مـن الحيـاة، حتى أخذته اللهفة، وطلب التعجيل بالأمر قبل أن يسقط مـن على حبل الحياة.

اتصلت شلبية بأمها، ذكرت لها تفاصيل ما عرفته عـن العريس الجديد، فأعلنت موافقتها.. سألتها شلبية:

طيب ورأي البنت؟

أجابت أمها بصوت صارم:

هو أحنا كنا خدنا رأيك يا بنتي
يوم ما تجوزتي، وأهو أنتي بسم
الله ما شاء الله مبسوطة وزي
الفل، وكـل النـاس فـي البلـد
بتحسدك.

احتارت شلبية في الرد على أمها، فعاجلتها هي بالسؤال:

وبسلامته هيشوف أمتى؟

اطمئني يا أمه، الراجل مستعجل
أكتر منك ألف مرة.

أخفت نفيسة الخبر عن ابنتها ابتسام، فموضوع زواجها من كهل بحاجة إلى تمهيد، بدأت تغدق عليها.. ملابس.. أدوات زينة، والبنت غارقة في حنان لم تعهده في حياتها، وهي لا تدري ماذا تخبئ أمها لها؟

عباس ذات نفسه، اتسعت ابتسامته في وجهها، هذه أول مرة تراه يبتسم لها، كيف تحولت بنظره على كنز؟.. سبحان مغير الأحوال!

لو كانت له عشر فتيات مثل ابتسام لكان من كبار المستثمرين، صالح وشلبية تحدثا معه في التليفون، أوضحا له أن العريس مهتم بشراء الهدايا لعروسه وأهل عروسه، وأنه وشلبية قد عملا حسابهما في شراء العديد من الهدايا.

أسرع عباس شنبو إلى الكاسيت الذي وضعه على حافة سور الشرفة، فتحه على أغنية المطرب الذي يلعلع صوته بكلمات شعبية.. "أنا لما دريت من فرحتي جيت، وها أقدم من عندي هدية"

الأسطى حسبو الحلاق، حين وصله صوت المغني، ترك في الحال رأس الزبون بعد أن رشق المشط في شعره وأرسل نظراته ناحية بيت عباس

كانت هناك عربة بيجو محملة بالحقائب، اهـتم عبـاس ونفيسة بنقلها إلى الداخل، ثم نزل منها علـى مهـل الشـيخ صالح وشلبية، وعلى أثرهما ظهر شيخ متهالك.

علق الحلاق لما شافه، إنهم قدموا به مـن تلـك الـبلاد يدخلونه الشفخانة، واستدار للزبون قائلاً في سخط.

هم الناس دول في بلادهم

ما عندهمش نسوان؟

قال الزبون:

عندهم يا أسطى حسبو. إنما

تلاقي المرة من دول لما تشوفها

.. عاديك.. ما تقلش غراب؟

راح يطقطق بالمقص بجوار قفا الزبون ويقول:

حظك يا عباس يا شنبو.. أبخات!

بصوت جهوري، رحب عبـاس بالضـيوف، أحتضـن صالحا بعنف: ثم احتضن حمدان الذي أمسك على نفسه وكتم آهة في صدره في هذا الموقف بالذات، لا يجـب أن يشـكي عنف الضمة التي لا داعي لها، وعباس يوغل في الترحيـب به وإطرائه:

اللهم صلي على النبي.. إيه الشباب
دا كله.. لأ يا صالح ما كانش عندك
حق تقول إنه كبير حبتين، الراجل زي
الفل أهه، شباب خالص.

اهتمت نفيسة بإشعال الموقد الفخاري، وعلى ناره الحمراء، وضعت حفنة من البخور وحصوة من الملح الخشن، ظلت تطقطق، متمنية أن تطق في عيون الحاسدين حتى يصابوا بالعماء.

وظل صالح للحظات يفكر في كلام عباس شنبو له، كلام كله كذب، ونفاق مفضوح، وأخيرا، وجد نفسه يقول له وخيوط البخور تصنع غلالة رقيقة تلف المكان:

الحمد لله.. إحنا ما نبغي
غير الخير.

(٨)

أخذت نفيسة ابنتها ابتسام من يدها، ذهبت إلـى الغرفـة الداخلية، رسمت فرحة الدنيا كلها على وجهها، قالت:

إلهنا كله جالـك يـا روح قلبـي،

عريس

زي الفل، أصبى وأغنى ألف مرة

من زوج أختك.

كادت ابتسام يغشى عليها، وقلبها ترتفع دقاته مـن شـدة الهلع:

منين العريس ده يا ولية.. حوسة

لو كان الراجل المهكع ده.

أهي أختك كانت بتقول زيك كـدا،

ولو

ما كنتش مبسوطة عمرها ما كانت

جابته مع جوزها وجت.

يا أمه.. حرام عليكي.. دا أنتي لو

عايزة تتجوزي، يبقى كبير عليكي.
يا بنتي صلى على النبي كدا
وروقي..
بكرة تعيشي في نعيم وتدعي لي
زي أختك.

تلتف نفيسة بأساورها الذهبية كالأفعى حول ابتسام، حتى أجهدتها وأبطلت حججها، في نفس الوقت كان عباس قرأ الفاتحة مع حمدان، وأصبحت ابنته خطيبته دون أن تدري.

وبدأت على الفور رحلات السفر للمنصورة، وكلما اشترى حمدان شيئًا، ذكرت نفيسة لابنتها أنها ما كانت تحلم به يوما، ولا يستطيع أحد من شباب القرية أن يشتري لها نصفه أو حتى ربعه.

غرقت ابتسام في ألوان الملابس الداخلية والفساتين، بدأ صوت معارضتها ينخفض، فلا أصبحت معارضة ولا شغلتها الموافقة، وإنما جرفتها صور العالم التي أصبحت على أبوابه.

كان حمدان متعجلاً، يريد أن ينعم بما يتبقى من عمره، وما تبقى من قواه، لا يريد أن يذهب إلى القبر بصحة لا

يستفيد منها غير الدود، ويكاد في بعـض اللحظـات تأكلـه الوساوس، لا يصدق أن زواجه سيتم بهذه السـرعة، لـولا عباس شنبو الذي كان يسكب في أذنه كلمات الثقة، لما صدق أبدا.

الثقة التي زرعها عباس في نفس حمدان، كان لها ثمـن، كلما ذلل له أي إجراء من إجراءات الزواج، غمزه بكيس من النقود، إذا جاءت سيرة الشيوخ على لسانه، واستعراض عدة أسماء أمامه، وهو يفكر فيمن سيتولى مـنهم عقـد القـران، سارع حمدان بغمزه بكيس من النقود، وحين قال إن الزواج يحتاج إلى شاهدين، وظل يستعرض كل الأسماء التي يكـون أصحابها على علاقة طيبة به. لم يجد له في القرية من يحبه أو يعتبره صديقًا.

شعر حمدان بأن هناك مشكلة على طريق زواجه، سارع بغمز عباس بكيس من النقود، وقال له تصرف بمعرفتك.

أخيرا، هداه التفكير، تعلق قلبه وبصره بدكانـة حسـبو الحلاق، ليس أمامه سواه.

حين شاهد حسبو مقبلاً ناحيته، صفق مرحبا، قال لصبيه:

روح يا وله قـوام هـات حاجـة

ساقعة.

أفهمه عباس أنه لن يشرب ألا شربات، سأله حسبو:

شربات مين؟

قال:

شرباتك أنت يا حسبو.

ثم أوضح له المسألة، مؤكدا أنه مهتم جدا بمستقبله وأنـه فاتح الشيخ حمدان في ذلك، سأل حسبو وهو يكاد يطير مـن الفرح:

طيب، لا مؤاخذة، الشيخ حمدان ها
يشغلني في السعودية إيه؟.

أجاب عباس وهو يفتعل الإمعان في التفكير:

لهو أنت مش حلاق، ها يفتح لـك
هناك دكان مزين.

ولكي يطمئن قلبه، مال عليه في ود مفتعل، هامسا بـأن الشيخ حمدان سيتزوج من ابنته ابتسام، ثم يسر لـه الأمـر، وفرش أمامه مساحة واسعة من الأمل، وهو يقول:

يعني يا حلاوة، ها يبقى زيتنا

في دقيقنا.

ومع ذلك، كان القلق وعدم الثقة واضحين على وجه حسـبو فعالجه عباس قائلاً:

طيب إيه رأيك يا حلو إنك هـا يكـون
لك شرف التوقيع على عقـد زواجـه.

هز حسبو رأسه متعجبا، الشيخ حمدان لا يصـلح إلا أن يكون اسمه في أرشيف الذكريات، يعني بطاقة إثبات وجوده في الحياة انتهت من خمسين سنة.

إن كنت مش مصدق يـا حسـبو،
تعال معايا الوقت وهـات شـاهد
تاني معاك بمعرفتك.

وتم زواج ابتسام، وبدلاً من أن تطلق نفيسـة زغاريـد الفرح، انفجرت في البكاء، وهي تودع ابنتها أمام حشد مـن الرجال والنساء:

مع السـلامة يـا بنتـي.. ربنـا
معاكي يا روح قلبي.

ثم تتجه إلى عباس وهي تخاطب الناس في شخصه قبـل أن تنطلق العربة بالعروسين:

حظ بناتك كدا يا عباس.. حظهـم
يتجوزوا بعيد عن عين أمهم.

لم يستطع حمدان أن يخرج ابتسام عن صمتها، منطويـة على نفسها داخل غرفتها، أنها الآن ملك يمينه، أحبت أم لـم تحب، رغبت فيه أم أبت، فرحة أم حزينة، إنهـا زوجتـه، ستبيت في فراشه.

لقد سبقها، استلقى هناك على ظهره، انتظـر أن تـأتي، أغمض العينين انتظارا، راح في النوم، بين الحين والحـين، تقع عيناها عليه، كأنه جثة محنطة، يبع شكله علـى الرثـاء والامتعاض معا.

حاولت أن تستسلم هي الأخرى للنوم، بـاءت محاولتهـا بالفشل، كادت تدعو الله لينتقم من أبويها، من أمها بالـذات، تراجعت خوفًا من أن يستجيب الله دعاءها.

في صباح اليوم التالي، زارتها شلبية، تكلمت إليها طويلاً عن تحقيق الهدف من وراء الزواج، البنت شلبية، قطعة من الطين العفنة من عقل أمها.

أنتي زي أمك، ما يهمكيش
غير الفلوس

بصت شلبية في عيني ابتسام، لا بد أن تحتمـل طـيش تفكيرها، ابتسام لا خبرة لها بالحياة، ابتسام بحاجة إلى مـن يرشدها ويأخذ بيدها.

قالت لها:

يا حبيبتي يا ابتسام، جوزك
رجله على عتبة القبر، الحقي
يا خايبة اعملي لك منه قرشين
قبل ما يروح في داهية.

بصت ابتسام في أساورها الذهب التـي التفـت حـول معصميها وتمتمت:

مش عايزة حاجة من الدنيا..
أنا عايزة أروح بلادنا.

شهر بطوله، حاول حمدان خلاله أن يحقق لها كـل مـا ترجوه:

مش عايزة منك غير حاجة
واحدة، أشوف أمي وأبويا.

لأول مرة تبتسم، لم تكن مشتاقة أبدا لأمها وأبيها، وإنمـا هو نوع من الحنين للغيطان والقنايات، لأزقة ضربت فيهـا

بأقدامها بين صفوف من بيوت الطين، اشتاقت لروائح ذلـك المكان.

حط بأقدامها على أرض القرية، محملة بالهدايا، في اليوم الثاني سألتها نفيسة:

ماحوشتيش يا بت حاجة أعنها
لكي تنفعك.
حاجة إيه يا أمه، والهم كان
مغرقني لشوشتي.

ضربت نفيسة صدرها بكلتا يديها، قائلة:

يا مصيبتك السودة، يا خيبتي
يا نني في عيالي، تعرفي تقولي
جوزناكي ليه؟

أجابت ابتسام في ضعف:

أهو دا اللي حصل!

قالت نفيسة والألم يمزق صوتها:

أعملي حسابك، الحتتين الدهب
اللي أنتي لبساهم ما ترجعيش
بهم تاني، ولو سألك جوزك،

قولي أي حاجـة، أختـك تبقـى تفهمك.

هزت ابتسام رأسها في انصياع، وظلت تبكي.

(٩)

استقل عباس وابنته وزوجها السيارة من المنصورة إلـى القاهرة، جذبت ابتسام بمصوغاتها الذهبية، كل من تصـادفه أو تقع عيناه عليها.

صباح الخير.. أنا لي نظرة في
الرجالة ما تخيبش.

بدا على الرجل أنه من كبار الأعيـان، أسـعد عبـاس بالجلوس إلى جواره في السيارة التي انطلقت بالجميع.

ضحك له في سذاجة. وهو يفكر في إيجـاد رد مناسـب على هذا الصباح الجميل:

أنا مش عمده رسمي يا سعادة
البيه، بس الناس بتقـول لـي يـا
عمدة.

ثم سمح لنفسه بقبول سيجارة من علبة سعادة البيه، وهو يضيف:

أنا في خدمة أي واحد في البلد

أكتر من العمدة.

بعد لحظات أومأ سعادة البيه برأسه ناحية ابتسام وحمدان اللذين كان يركبان في المقعد الأمامي إلى جوار السائق ثـم سأل:

العروسة دي فيها شبه منك،

هي بنتك؟.

ابتسم عباس قائلاً في تواضع:

فعلاً، بنتي.

مع إشعال السيجارة الثانية، انفتحت نفس عباس، شـعر بالفخر وهو يحكي عن ابتسام وأختها شلبية التي تعيش فـي السعودية، وعلى مشارف القاهرة، قال سعادة البيه:

أرجو من الله - يا حاج عباس -

إنه يوفقني وأجي لك زيارة.

ذكر له عباس اسم بلدته، ثم أوضح بمجرد ما ينزل هناك ويقول عباس شنبو ألف واحد من الأهالي سيأتون به علـى رؤوسهم.

نزل الركاب من السيارة، وقف الثلاثة على الطوار، شعر عباس وهو ينظر إلى ميـدان رمسـيس بزحامـه وأناسـه

وعرباته، أنه إذا خطا خطوة واحـدة بقدمـه سـيكون أول الغرقى في هذا البحر.

مع أن فكرة الذهاب إلى القاهرة للفسحة، كانت من وحي أفكاره، لما عرضها على حمدان أخذ رأي ابتسام، وافقت، ثم وافق هو.

أين يذهب عباس بهما الآن؟

سيارة تاكسي وقفت أمامهم، فتح السائق بابها وهو ينحني برأسه قليلاً، قال في تواضع:

اتفضل يا عمدة.

نفخ عباس شنبو صدره، اندفع جالسا في المقعد الأمامي، ابتسام وحمدان وراءه، والسائق يدير مارش العربـة، سـأل بهمس:

على فين؟

وجد لسانه يتحرك بدون تفكير:

ودينا يا ابني جنينة الحيوانات.

قضوا النهار في التجوال، قرود، ببغاوات، أسود، نمور، نعامات، زرافات، لف عباس ودار في الجنينة، مـا أعجبـه فيها شيء سوى الحمار المخطط، يلف الجنينة تاركًا ابتسـام

تتناول مع زوجها السندوتشات والفطائر، ويعود من جديد متأملاً في خطوط الحمار الملونة.

ظلت هذه الرحلة حديث عباس المفضل، ذكرها لحسبو الحلاق أكثر من عشرين مرة، وكان حسبو فقد رغبة الاستماع لحديث يدور كل يوم حول الحمير المخططة.

سأله والموسى يجريها على جسد الحزام الجلدي قبل أن يحلق له ذقنه:

ما قلتليش، عملت لنا إيه
مع الحاج حمدان.

أجاب عباس وعيناه تتابع حركة الموسى على قطعة الجلد:

والله يا سيدي الراجل مهتم
بك، وبيقول كلها يومين
ويبعت العقد.

وبعد أن انتهى من قص شعره وحلق ذقنه، وقف في عباءة سوداء، وضع حسبو على رأسه طاقية بيضاء مطرزة بالحرير الأبيض، ناوله مسبحته ذات الحبيبات السوداء، أمعن

النظر في شاربه وصبي الحلاق مهتم بالمسح على العباءة بالفرشاة، لعله ينال بقشيشًا.

فكر لحظة في الذهب.. أين أخفت نفيسة عن عينيه أساور وحلقان ابنتيه؟.. كل شيء ثمين تخفيه دائما عنه، لكن.. أليس له الحق فيه؟.. شلبية ابنته وابتسام، كما أنهما ابنتيهما، فلماذا هي تستحوذ على الذهب؟

ابتسام هي الوحيدة التي تختلف عن أمها وأختها في كل شيء، تدعي أنها ترتكب إثما في حق زوجها لو أن يدها امتدت - دون إذنه - على شيء من ماله، تقول هذا حرام.

من علم هذه الابنة معنى الحرام؟.. أمها ذات نفسها زودتها بالنصائح، لم تستفيد بدرس واحد من دروسها.

أمس اتصلت بهم تليفونيا، الشيخ مستسلم على فراش المرض، لم تقل أنه عوضها ماديا، فقد جمع أسرته كلها، أوصى بها خيرا.

كان جميع أهل أسرته أوفياء للوصية، عملوا بها بعد موته، بل زادوا على ما فيها، وانسابت الدموع بغزارة من عيني ابتسام.. أهي دموع الخلاص؟.. أم إنها دموع رهبة الموت.

عادت ابتسام إلى القرية التي كانت مشتاقة لألوان قطنها وغلالها وأرزها وأزقتها الموحلة، عادت بأكثر مما حلمـت أمها أعطتها كل ما حملته، وقبعت في أحد الأركان، ظلـت تبكي وتندب حظها، وقد شاع بين زبـائن الأسـطى حسـبو الحلاق أن ابتسام مازالت عذراء!.

(١٠)

طلب عويس إلى أخيه ما هو أن يأتي معه لزيارة أمهما، ربما يحن قلبها وتعطف عليهما، ماهر شاب عنيد، يعرف أن قلب أمه أقسى من حجر أسوان.

وافق عويس على كل كلمة قالها أخـوه، فمـاذا يعمـل للخروج من ظروفه النكدة؟.. يعرف أن ابتسام طيبة القلـب، لو ذهب إليها واختلى بها، ربما تعطيه شيئًا.

لكن كيف سيختلي بها وأمه هناك؟

عندما شافته بأن عليها القرف والضيق، تغاضـى عـن النظر إلى وجهها، تحمل على مضض، وكأنه يطحن ملحـا خشنًا بأسنانه وهو يقول:

إزيك يا أمه.

....

عايز أشوف أختي ابتسام.

خرجت إليه من غرفتها، احتضنته، لامته لأنه لـم يـأت ليشوفها إلا بعد شهر من وصولها، لم يشأ أن يذكر أسـباب عدم حضوره، وهو يرى أمه ليست في حال من السرور.

باغتته بقولها:

هي لسه الجلابية القديمة دي
على جتتك.

بانكسار وضعف، أجاب:

هو أنا عندي غيرها علشان
أغيرها.

ضربت صدرها بيدها قائلة:

يا حسرتي.. هي أمك ما ادتكش
من البلاوي المتلتلة عندها.. دي
عندها أكثر من ألف جلابية.

اندفعت ابتسام منفجرة في وجه نفيسة، ذكرتها بوصـية شلبية لها على أخويها عويس وماهر، والفلوس والجلاليـب التي أعطتها لها باسميهما.

كادت تصاب بالجنون أمام المرأة التي لا قلب لها، كادت تختنق بسبب إنكارها، وقد أجابت على كلامها ببرود:

اسم النبي حارسـك يـا أختـي..
جلاليب
إيه وفلوس إيه؟.. قالوا لك فاتحينها
تكية.
بلاش الحاجات بتاعـت شـلبية..
تسمحي
تجيبي لـه الجلاليـب اللـي أنـا
شاريالها
له.

كل محاولاتها مع أمها ذهبت سدى.

ماذا تعمل فيها؟

لم تستطع أن تتماسك، اعترتها نوبة مـن البكـاء فـي هستيرية، عقب ذلك آثر عويس الانسحاب وهو يقول:

بكرة تشـوفي يـا أمـه.. ربنـا
موجود..
ربنا كبير

في هذه اللحظة كان عباس شنبو جالسا في الشرفة، جهاز الكاسيت إلى جواره، وصوت المغنى يزعـق علـى "شـيخ

البلد.. خلاف ولد " وحسبو الحلاق يدور هناك داخـل دكانـه حول رأس زبون جرى مقصه في شعره، كان يغمغم..:

جات البعيد نيلة.. شيخ
البلد إيه يا راجل يا نطع.

وحين رفع عباس عينيه، لمح شيخًا يتوكأ على عصـاه، لحيته المسترسلة على صدره أطل من شاربه هـو، يرتـدي ثيابا بالية، وقد استدارت حول رأسه عمامة كبيرة.

كان وهو على مشارف القرية، سأل عن بيـت عبـاس، وصف له أحدهم البيت الواقع في مواجهة صـالون حسـبو، قال لنفسه كأنه يثبت قولاً على صفحة ذهنه.. بيـت أمامـه حلاق، لن يتوه عنه، ورفض أن يمشي به إلى هنـاك أحـد المتطوعين.

فوجئ عباس بالدرويش يصيح أمامه:

حي.. حي.. عبـاس بـن عبـد
الحي..
ابن وهيبة، حي.. حـي.. عبـاس
رجل
نفيسـة ونسـيب الحـاج صـالح

وحمدان.

أغلاق مفتاح الكاسيت، غير مصدق أذنيه وعينيه، أسـرع لتناول يده، أقسم بالله أن يحل عليه ضيفًا حتـى ينـال مـن بركته، وهو يصعد السلم ذي الثلاث درجات إلى البيت، لـم تتوقف تمتماته، ومسبحة عتيقة، غليظة الحبات، تتساقط بـين أصابعه.

قدم له طعاما، رفضه الدرويش، إنه ما جـاء ليأكـل أو يشرب، إنه تجشم المتاعب والصعاب، مـن أجـل مسـاعدة عباس في الحصول على خير هو أهل له.

قبل أن يسأله عباس عن نـوع هـذا الخير. قال:

عرفت اسمي منين الأول؟

بصوت مشحون بالأيمان، أجاب خافض البصر:

علم الإنسان ما لم يعلم..

صدق الله العظيم.

ثم طرق أمامه باب الخير، وقبل أن يدلف منـه، سـارع وهو لا يستطيع السيطرة على انفعالاته، نادى بصوت عال:

تعالي يا ست نفيسة.. تعالي

شوفي الراجل البركة بيقول إيه؟

انبهرت نفيسة بكلام الرجل البركة، ادعى بأن هاتفًا هبط عليه أمس، كشف له عن كنز تحت بيت عبـاس، وإنـه آن الأوان ليظهر على يديه.

ويسيل لعاب نفيسة، وهي تطلب من عبـاس أن يمسـك أعصابه ولا يجعل الفرح يفضح أسرارهم عند الجيران.

أمسك عباس على نفسه والدرويش يقول:

الكنز عليه حارس بيحرسـه مـن
زمان.

ثم رشق عينيه في عيني عباس وسأل بصوت قاطع:

عايز الكنز يا عباس واللا أمشي؟

أجاب بسرعة:

تمشي إزاي يا مولانا وأنا
عايز الكنز.
حيث كدا لا بد تعرف إن الحارس
اللي معاه مفتاح الكنز تلزمه هدية
كبيرة.. الهدية اللي بياخدها يعطي
لك أكتر منها عشر مرات.

استبدت بعباس الفرحة وهو يسأل عـن كيفيـة إعطائـه الهدية.. أجاب الدرويش:

هنبخر الأوضة ببخور مخصوص

أنا جايبه معايا.

ثم أمره أن يأتي بالذهب ويحطه بنفسه في قطعة قمـاش مغسولة بمية طاهرة وهو يتلوا الشهادة ويصلي على النبـي، ثم يضعه في نقرة يفتحها في الأرض وبعد ذلك يغطي النقرة بيديه، وينتظر مدة لا تزيد على ثلاث سـاعات ولا تـنقص دقيقة واحدة، إن شاء الله يفحت النقرة بيديه، يـبص يلاقـي الحارس أخذ الهدية وحط مكانها ما يزيد على وزنها عشـر مرات.

طار عقلا نفيسة وعباس من الفرح، قفـزت كالأطفـال، جمعت ذهب الشيخ صالح وحمدان، قال الدرويش لعباس:

خلي الهدية معاك.. انتظر.

أخرج من جيبه قطعة قماش، قرأ عليها آيات من القرآن، وأعطاها لعباس قائلاً:

حط يا ابني هديتك بإيدك أنت.

وعلى رائحة البخور المتصاعدة، تمتم، غمغم، بكلمـات غير مفهومة، حتى فقدت العيون الرؤية بسبب كثافة البخور، واتكأ الدرويش على عصاه معلنًا أن مهمته انتهت، وطمـأن عباس:

حاجتك حطتيها بنفسك في النقرة

.. اطمئن.

ثم صرخ صرخة قوية كأن قوى خفية تملكته:

حي.. حي.. السلام عليكم.

صاح عباس:

أوصاك يا سيدنا.

حي.. حي.. يا ابنـي لازم تبقـى

موجود

هنا علشان الكنز.

اختفى الدرويش وراء كثافة البخور كأنه يغيب في حلـم يتمنى عباس أن يعود منه بذهب العالم كله، وتعلـق نفيسـة وهي تنظر في الساعة:

العجيبة إنه عرف اسمك واسمي

واسم صالح وحمدان.

ويقول عباس:

أول عيني ما لمحتـه جـاي مـن
ناحية
حسبو الحلاق، قلت الراجل دا هو
فيه
شيء لله.

ثم يسرع إلى النقرة، يحفر حولها بيديه، خبطت يده فـي الصرة التي وضعها بنفسه، فتحهـا بسـرعة، سـقط علـى الأرض فاقد النطق، قلبت نفيسة فيها بيدها، ثم راحت تلطـم خديها بيدها وتقطع شعرها، حلي من الصفيح وقطع صغيرة من الحديد، ثم خرجت حيث شاهدها زبائن الأسطى حسـبو الحلاق، مهوشة الشعر، تضرب الحديد بالحديد وتقـول فـي جنون الذهب مهما كانت قيمته ذهب، ونسيت عبـاس الـذي كان منكفئًا ببوزه على حافة الحفرة.

تمت